هذا.. وقد سلم للإمام عبد القاهر الكثير من المباحث البلاغية - بعد مواضع الاشتراك - منها مبحث الفصل والوصل على النحو الذى قدمناه فهو أبو عذرته، وواضع نبتته، ومتعهد عوده، ومفتق اكمامه، ومجتنى ثماره.

أعطى مَنْ بعده أضعاف أضعاف ما أخذ هو ممن قبله؛ جامعا بين الاستفادة والافادة خير جمع وأبقاه.

الحكمة.. والمثل.. والتمثيل

نظرات فى اصولها وخصائصها الفنية(١)

تتفاوت قيم الكلام كما تتفاوت قيم «النقود» فهى قد تتساوى فى «العدد» ولاتتساوى فى «القيمة» فقطعة واحدة منها تساوى فى القيمة عشرات القطع، بل مئاتها، وإن أطلق على كل منهما رقم واحد.

أو تتفاوت قيمه، أى الكلام، تفاوت قطعتين من «المعادن» وزنهما واحد، فليس مثقال من «الفضة» يعدل مثقالا من «الذهب» ولامثقال من «النحاس» يعدل واحدا منهما، وان اتحد الوزن.

أو كما تتفاوت قيم «الحجوم» المتماثلة فى المقدار، إذا اختلفت طبيعة المادة المكونة، لها، لأن الحجوم لاينظر فيها عند «الموازنة» والتقويم إلى ما يشغله كل حجم من الفراغ، وإنما ينظر فيها إلى أعيانها وأجناسها.

بم يتفاضل الكلام

هذه مثل ثلاثة لتفاوت قيم الكلام. فهو لاينظر فيه إلى طوله وقصره، وكونه كلاما وكفى، وإنما ينظر فيه إلى مضامينه ومعانيه، وتراكيبه، ومبانيه، وبقدر ما يحمله الكلام من تلك الخصائص تكون قيمه، وبها يقدم كلام على كلام. وفى الحكم والأمثال والتمثيل تظهر خصائص الكلام البليغ فى مبانيه ومعانيه، وتجمع بين الإقناع والإمتاع، وهما غايتان تضفيان على الكلام الذى يؤديها جمالا وسحراً، وروعة وخلابة، وبها صارت الحكم والأمثال حكما

---

(١) نشر هذا البحث فى مجلة كلية اللغة العربية بجامعة أم القرى بمكة المكرمة العدد الثانى ١٤٠٤.

وأمثالا، فخف محملها على اللسان، وثقل وزنهما، وتغنت بها الركبان ورددتها الأفواه فى كل محفل وحلّى بهما جيد كل كلام بليغ وأصاب الرامى بهما شوارد العقول، وحاز محاسن النقول، فهو بها - أبدا - لا يكبو له جواد، ولا هاض له جناح، ولا كدى له سهم.

ثناء النقاد على الحكم والأمثال

وقد أطنب العلماء والنقاد فى الثناء على هذا الضرب من البيان، واستجلاء خصائص النظم فيه، وقوة أسره وجماع بلاغته.

يقول جار الله محمود بن عمر الزمخشرى: «هى قصارى فصاحة العرب العرباء، وجوامع كلمها، وبيضة منطقها، وزبدة حوارها وبلاغتها التى أعربت بها عن القرائح السليمة، والركن البديع إلى ذرابة اللسان، وغرابة اللسن، حيث أوجزت اللفظ فأشبعت المعنى، وقصرت العبارة فأطالت المغزى، ولوحت فأغرقت فى التصريح، وكنت فأغنت عن الإفصاح، وللنثر أنّى سلكت أثناءه طلاوة، وللشعر كيف انساقت فى تضاعيفة متانة.. حتى شبهوا بها كل سائر أمعنوا فى وصفه، وشارد لم يألوا فى نعته[1]».

ونقل الميدانى، وغيره، عن إبراهيم النظام نصا فى هذا المعنى: هو مع وجازته أبلغ ما قيل عن الحكم والأمثال، وهو قوله: «يجتمع فى المثل أربعة، لا تجتمع فى غيره من الكلام، إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه، وجودة الكناية فهو نهاية البلاغة[2].

قارن هذا الكلام بكلام الزمخشرى تجده على قصره البالغ قد جمع ما تفوق فى كلام الزمخشرى، فالرجلان ينزحان من بئر واحدة وان اختلفت الدلاء.

ويستشهد أبو هلال العسكرى على بلاغة هذه الأساليب من القرآن الحكيم، فيقول:

«ثم إنى رأيت حاجة الشريف إلى شىء من أدب اللسان بعد سلامته من

---

(١) مقدمة المستقصى (جـ ١ ص ب - ج).
(٢) مجمع الأمثال (جـ ١ ص ٦).

اللحن، كحاجته إلى الشاهد والمثل والشذرة والكلمة السائرة، فإن ذلك يزيد المنطق تفخيفا، ويكسبه قبولا، ويجعل له قدرا فى النفوس، وحلاوة فى الصدور ويدعو القلوب إلى وعيه ويبعثها على حفظه، ويأخذها باستعداده لأوقات المذاكرة، والاستظهار به أوان المحاولة فى ميدان المجادلة، والمصاولة فى حلبات المقاولة وإنما هى فى الكلام كالتفصيل فى العقد، والتنوير فى الروض والتسهيم فى البرد، فينبغى أن يستكثر من أنواعه، لأن الإقلال منها كاسمه إقلال، والتقصير فى التماسه ـ قصور، وما كان منه مثلا سائرا فمعرفته ألزم به لأن منفعته أعم، والجهل به أقبح(١)».

نقلنا نص أبى هلال بطوله، لأن أبا هلال أديب بلاغى ناقد لذا تراه بعد أن أجمل القول فى صدر كلامه، عاد فأوضحه بثلاث صور تشبيهية: فشبهه مرة بالتفصيل فى العقد وهو اختلاف حياته فى التلوين، ومرة بتفتح النّور فى الروض المزهر. ومرة بالتلوين فى خطوط «البرود» المحبرة.

ويعزى ابن القيم الجوزية الأمثال إلى ثمرات العقل، ويفوه بما لها من جمال المعنى فيقول:

«الأمثال شواهد المعنى المراد، وهى خاصية النقل، ولبه وثمرته(٢)».

ويوجز ابن رشيق جمال المثل وبلاغته فى الإيجاز والصدق، قال: المثل السائر فى كلام العرب كثير نظما ونثرا، وأفضله أوجزه، وأحكمه أصدقه(٣)».

ويذكر طائفة من أمثال القرآن، والبيان النبوى، ثم يردفها بنصوص شعرية وركز على رأى أن فيه أكثر من مثل واحد فى البيت الواحد وأورد ضمنها بيتا للقزاز ـ السفاط، وقال ان أمثالا خمسة قد حواها، وهو قوله:ـ

خاطر تفد، وارتد تجد، وأكرم تسد وانقد تقد، واصغر تعد الأكبرا(٤)

وليس فى البيت ـ هنا أمثال ـ وإنما هى حكم. وسوف نعود لإيضاح ـ هذا عند التفرقة بين الحكم والأمثال.

---

(١) مقدمة جمهرة الأمثال (جـ ١ ص ٤).
(٢) أعلام الموقعين.
(٣) العمدة (جـ ١ ص ٢٨٠).
(٤) نفس المرجع (جـ ١ ص ٢٨٤).

أما التمثيل، فهو على ثلاثة أنواع كما سيأتى، فإن الإمام عبد القاهر الجرجانى قد أفاض فى الكشف عن الأسرار البيانية لنوع منه، واستقصى وجوه القول فى اسكتناه بلاغته وأثره فى النفوس، وتبعه الخطيب والشراح، وسيأتى الحديث عنه فى شىء من التفصيل إن شاء الله(١).

وصانعو الأمثال - ابتداء - اجتهدوا من أجلها، فأودعوها ثمرات عقولهم وخالص تجاربهم، والألفاظ والمعانى فيها تراها تتناسب تناسبا عكسيا: لفظ موجز قصير ومعنى كثير وفير، هذا هو الغالب فيها، وكأن صانعيها قصدوا ذلك قصدا حتى تخف على اللسان، فيسهل استعمالها، ويكثر إيرادها، ويشيع أمرها، ويسرع معناها إلى القلب كلمح البصر. وإلى هذا المعنى يشير أبو هلال بقوله:

«ولما عرفت العرب أن الأمثال تنصرف فى أكثر وجوه الكلام، وتدخل فى جل أساليب القول، أخرجوها فى أقواها من الألفاظ، ليخف استعمالها، ويسهل تداولها، فهى من أجل الكلام وأنبله، وأشرفه وأفضله، لقلة ألفاظها، وكثرة معانيها، ويسير مؤونتها على المتكلم، مع كبير عنايتها، وجسيم عائدتها، ومن عجائبها أنها تعمل عمل الأطناب، ولها روعة إذا برزت فى أثناء الخطاب، والحفظ موكل بما راع من اللفظ، وبما ندر من المعنى(٢)».

الدلالة اللغوية لمادة «حكم»

تدور مادة (ح ك م) فى اللغة حول معانى الضبط والمنع، والحذق والإصابة، وتأتى وصفا للأفعال والأقوال فى المحسوسات والمعقولات وإذا أخذنا بالرأى القائل: «إن المعانى المحسوسة سابقة وجودا على المعانى المعقولة، وأنها أصل لها وعنها تولدت. فإن أول ما يتبادر إلى الذهن من معانى هذه المادة هى «حَكَمَةُ الفرس» لأنها المعنى المحسوس البارز فيها. وحكمة الفرس لها معنيان فى معاجم اللغة. نص الجوهرى على أحدهما، ونص الزبيدى على الإثنين معاً.

---

(١) أى عند بيان أنواع التمثيل المتقدم ذكرها آنفا.

(٢) جمهرة الأمثال (جـ ١ ص ٥).

قال الجوهرى:

«وحكمة اللجام ما أحاط بالحنك[1]».

أما الزبيدى فقال:

«والحكمة محركة ما أحاط بحنكى الفرس.. من لجامه سميت بذلك لأنها تمنعه عن الجرى الشديد.. وقال ابن شميل: الحكمة حلقة تكون فى فم الفرس[2]».

وتلخص من هذا أن حكمة الفرس أو الدابة بوجه عام هى:

(أ) ما أحاط بالحنك من سير اللجام المصنوع من الجلد السميك،

(ب) الحديدة المقوسة التى توضع فى فم الفرس أو الدابة، وتشد وترخى بوساطة سير اللجام الممسوك طرفه بيد الراكب.

وما نقله الزبيدى عن ابن شميل أقوى، لأن الذى يؤثر فى ضبط حركة الفرس إنما هو «الحديدة» الموضوعة فى فمها ما أحاط بحنكها من سير اللجام وتأثيرها يشبه تأثير «السنارة» التى تصاد بها الأسماك.

ووظيفة «الحَكَمةَ» ضبط حركة الدابة وكبح جماحها ومنعها من الاندفاع والانحراف والتمكن من وقفها عن السير حين يراد ذلك، فهى تقوم مقام جهازى التوجيه والتوقف فى مقاود السيارات الحديثة سواء بسواء.

وهذا المعنى جدير بأن يكون أصلا لكل ما ورد فى تصريفات هذه المادة فالحكم وهو القضاء المانع من نزاع الخصوم، ونقل الزبيدى عن الأزهرى أن قوما خصوه بالقضاء العادل[3]، لأنه يكون أقطع للعذر. صالح[4] لأن يكون متفرعا عن المعنى الذى تقدم فى حكمة الدابة، وكذلك «الحاكم» و«الحكيم» و«الإحكام» و«المحكم» و«الحِكْمة».

---

(١) الصحاح (جـ ٥ ص ١٩٠٢).

(٢) تاج العروس (جـ ٨ ص ٣٥٣).

(٣) نفس المصدر والموضع.

(٤) صالح هو خبر عن «فالحاكم فى أول الفقرة».

فالحاكم هو السلطان، والشأن فيه أن يسوس الأمور ويمنع تنازع الرغبات والشهوات والحكيم هو المجرب للأمور الضابط لتصرفاتها، والقائل المصيب والفاعل المجيد، والإحكام هو الإتقان والحذق، والمحكم هو المتقن، والحُكْم هُو المانع من الفوضى والاضطراب. والحكمة هى ما أصاب المرمى من قول أو فعل. وحكيم الحكماء هو «الله» لأن قوله وفعله وتصرفه هو «عين الحق» سام فوق كل مقال.

وهكذا إذا تتبعنا ثقبات المادة فإن معانيها يصح إرجاعها إلى ما تقدم من معنى «حكمة الدابة»:

وقد جاءت «أحكم» بمعنى نهى، وذكر صاحب التاج حديثا عن ابن عباس فى هذا المغنى(١) والنهى منع، والمنع هو معنى حكمة الدابة.

ويؤيد هذا أن الفيومى ذهب إلى القول بأن «الحكْمة» التى تمنع صاحبها من أخلاق الأراذل مشتقة من «حكمة الفرس» أو الدابة الممتطاة بوجه عام(٢).

الدلالة اللغوية لمادة «مثل»

فى كتب اللغة يكاد ينحصر معنى المَثَل، والمِثْل والمثيل فى التنظير والتشبيه والفضل وقوة الظهور، وفى معنى «صفة» مضافة لما بعدها. فإذا زيد فيها «تاء الافتعال» كقولنا «امتثل» دلت على المطاوعة والاتباع. وقد تزاد التاء مع حرف آخر كقولنا «تماثل» فتدل على بدء الأخذ فى الشىء، كتماثل المريض للشفاء. وقد تزاد الألف بعد التاء ومنه: تِمْثال وتَمْثال بكسر التاء فى الأولى وفتحها فى الثانية ومعنى الأولى بمعنى التمثيل فى كونه مصدراً لمثَّل المضعف العين، ومعنى الثانية الصورة. والمثول بزيادة الواو القيام والانتصاب، وجاء منها: المثال بمعنى الفراش. والأمثل والمثلى بمعنى الأفضل والفضلى والمَثُل جمع مُثْله بمعنى العقوبة والعقوبات والمَثْل بفتح فسكون التنكيل بالقتيل بجدع أنفه وقطع أطرافه(٣):

---

(١) تاج العروس (٨ ص ٢٥٤).

(٢) المصباح المنير (١٤٥).

(٣) انظر الصحاح (جـ٥ ص ١٨١٦) والتاج جـ٨ (ص ١١٠) والمصباح المنير (٥٦٣).

وهذه المعانى على اختلافها ترجع إلى المقارنة بين شيئين هذا هو الغالب فيها وما خرج عن هذا المعنى يمكن إرجاعه إليه عند التحقيق، وأشد خروجا عنه ـ فى الظاهر ـ كونه بمعنى العقوبة والتنكيل والفراش. وهذه يمكن حملها عليه، لأن العقوبة البالغة تصبح ماثلة فى الأذهان وتصور للناس للزجر والاتعاظ يؤيد هذا قوله تعالى:ـ

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [الرعد: ٦].

فسياق الكلام يدل على التعجيب من شأنهم حيث يستعجلون السيئة، وما فعله الله بأمثالهم ماثل لهم كأنهم يرونه، فكان حريا بهم أن يرتدعوا وفاصلة الآية «لشديد العقاب» تؤذن بهذا المعنى.

قال ابن جنى عقب هذه الآية: أى العقوبات التى تزجر عن مثل ما وقعت لأجله، ويحتمل أنها التى تنزل بالإنسان فتجعل مثالا ينزجر به ويرتدع غيره(٢)».

وكذلك التنكيل بجدع الأنف وقص الأطراف صورة بشعة تُمثُل للنفس وتقر. فالصورة الذهنية فى هاتين تماثل الصورة الحسية التى وقعت وأما كونها بمعنى «الفراش» فقد تأولته تأويلا أسعدنى أن ابن جنى صرح به فقال: والمثال الفراش وهو شىء يماثل ما تحته وما فوقه(٣).

والخلاصة: أن مادة (م ث ل) فى اللغة تأتى لمعانى كثيرة بالتصرف فى الصياغة. وأن هذه المعانى ترجع إلى أصل عام واحد، وإن شذ بعض المعانى عنه، فهو شذوذ من حيث الظاهر، وعند التحقيق تلتقى كل معانيها فى التصوير والتجسيم والمماثلة.

الحكمة والمثل فى الاصطلاح البلاغى

الحديث عن الحكمة وضبطها ومعرفتها يتضح بيسر بعد بيان المراد بالمثل

---

(١) مقاييس اللغة (جـ ٥ ص ٢٩٧).

(٢) نفس المصدر والموضع.

وضبط معناه، ومعرفة خصائصه الفنية لذا سنرجىء الحديث عن الحكمة بعد الفراغ ـ من الحديث عن المثل، وإن تقدمت فى الترجمة.

أما الحديث عن المثل فسنشطره شطرين كبيرين:

الأول: بيان المقصود اصطلاحا من مادة «م ث ل» فى أشهر تصريفاتها: مَثَل، ومِثْل، ومثيل.

الثانى: بيان المقصود من المثل، وهذا التقسيم مهم بالنسبة لموضوع الدراسة، فقد وقفت فيها على خلط كثير وقع فيه بعض الكاتبين قديما وحديثا. فرأيت ـ من الواجب أن نحرر القول فيها قدر الطاقة، مستمدين الدليل والشاهد من أنماط التراكيب الفصيحة، وبخاصة البيان القرآنى الحكيم، والبيان ـ النبوى الشريف، مضافا إليهما نماذج من التراث العربى شعره ونثره.

أدوات التمثيل

نقصد من أدوات التمثيل تصريفات المادة المشار إليها، وهى مَثَل، ومِثْل، ومثيل، فقد خصها الاصطلاح بالتشبيه، والتنظير، والمساواة بين أمرين أو عدة أمور، والكاتبون لايفرقون ـ غالبا ـ بين تصريفات المادة الثلاثة، فهى عندهم بمعنى واحد هو التشبيه كما مر، يقول الميدانى: أربعة أحرف سمع فيها فَعَل وفِعْل، وهى مَثَل ومِثْل وشَبَه وشِبْه.. وفعيل فى ثلاثة من هذه الأربعة يقال هذا مَثيله وشبيهه وبديله.. غير أن المِثْل لا يوضع موضع هذا المثل وإن كان المَثل يوضع موضعه(١).

وخلاصة كلام الميدانى أن مَثلَ مثْل شَبَه، ومِثْل كشِبْه، ومثيل كشبيه. غاية ما فى الأمر فإن مِثْل لاتوضع موضع المَثَل المشبه مع جواز وَقوع المَثَل موضع المِثْل.

وفى كلام الميدانى غموض ووضوح، فالغموض فى تجويزه وضع مَثَل موضع مِثْل، وهذا غير واضح الدلالة على المراد منه. والوضوح حيث قابل بين مَثَل وشَبَه ومِثْل وشِبْه، ومثيل وشبيه، فجعلها كلها أدوات تشبيه، وليس الأمر كما قال وسنبين وجه الصواب فى هذه الكلمات: مَثَل ومِثْل ومثيل إن شاء الله.

وقصدنا من نقل كلامه أنه لم ير فرقا بينها، وهذا من الخلط الذى أشرنا إليه.

---

(١) مجمع الأمثال (جـ ١ ص ٦).

وكذلك سلك أبو هلال، فلم يفرق بين مَثَل ومِثْل فى جعل كل منهما أداة تشبيه فقال: أصل المثل التماثل بين الشيئين فى الكلام، وهو من قولك هذا مَثَلىُ الشىء ومِثْله كما تقول شَبَهُهُ وشِبْهُه(١)».

وذهب ابن رشيق مذهبهما فى عدم التفرقة فقال: «المَثَل والمِثْل الشبيه والنظير(٢)».

ويشيع فى كتابات المعاصرين أن يصدروا كتاباتهم فى هذا الفن بقوله: المَثَل والمِثْل والمثيل كالشبه والشبه والشبيه.

يعنون بهذا أن كل هذه الكلمات تفيد معنى التشبيه دون تفرقه ومن العلماء من استشعر وجود فرق بين مَثَلَ ومِثْل، فابن العربى ـ مثلا ـ يرى أنهما ليستا سواء وزعم أن الفرق بينهما أن (مثل) بفتح الميم والثاء تستعمل فى تشابه المعانى المعقولة وأن (مثل) بكسر الميم وسكون الثاء مخصوصه بتشابه الأشخاص المحسوسة(٣).

ونحن مع ابن العربى فى التفرقة بين الكلمتين، ولسنا معه فى الفرق الذى ذكره لأن كلامه فى حاجة إلى تحقيق، لأن الواقع يدفعه جملة وتفصيلا.

وأول ما يعترض به على كلام ابن العربى ورود الكلمتين فى البيان القرآنى ـ وهو أفصح الأساليب ـ على غير ما ذكره فقوله تعالى: ﴿ **وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ** ﴾ [الفتح: ٢٩].

وقوله تعالى: ﴿ **وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ** ﴾ [الكهف: ٤٥].

وقوله تعالى: ﴿ **أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ** ﴾ [الحديد: ٢٠].

---

(١) جمهرة الأمثال (جـ ١ ص ٦).

(٢) العمدة (١ ص ٢٨٠) ت: محمد محيى الدين عبد الحميد.

(٣) شرح الترمذى (جـ ١ ص ٢٩٥).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤].

فى هذه الآيات الأربع الحكيمة جاء المشبه به صورة حسية بلا أدنى جدال وإن كان الوجه معقولا. أما المشبه فهو فى الأولى «مثلهم» وفى الثانية «مثل الحياة الدنيا» وفى الثالثة (حال الدنيا فى ازدهارها ونموها وسرعة زوالها وتذبلها، وفى الرابعة «مثل الحياة الدنيا» ولم تخل واحدة من الصور المشبهة فى هذه الآيات الأربع من اعتبار بعض العناصر الحسية فيها، فهى جميعا مزيج من الحسبات والمعقولات.

ومقتضى كلام ابن العربى أن لا تأتى «مثل» إلا لتشابه المعقولات، ولو كان الأمر كما قال لما جاء شىء منها هكذا فى القرآن الحكيم، ووروردها فى القرآن على هذا الوجه ببطل ما ادعاه ابن العربى بلا نزاع هذه واحدة.

والثانية فإن «مثل» فى هذه الآيات لم تأت فى واحدة منها آداة تشبيه وإنما أتت أما مشبهة هى بغيرها «مثلهم.. كزرع» وأما مشبها بها غيرها «كمثل غيث» بدليل دخول حرف التشبيه عليها. وهذا يبطل ما ادعاه آخرون، ومنهم ابن العربى، أنها تأتى آداة تشبيه وهى لم تأت أداة تشبيه لا فى هذه النصوص، ولا فى غيرها قرآنا وغير قرآن؟:

وخرجت «مِثْل» عما قرره ابن العربى كما خرجت «مَثَل» بمجيئها فى تشبيهات المعقولات، كما جاءت «مَثَل» فى سياق المحسوسات(١).

---

(١) قلنا فى سياق المحسوسات، ولم نقل فى تشبيهات...» لما علم من أنها ليست أداة تشبيه قط.

ومن مواضع خروج مثل قوله تعالى:

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [البقرة: ١١٨].

فليس المراد تشبيه قول بقول فى كونه لفظاً، بل المراد تشبيه القول الأول بالقول الثانى فى أن كلا منهما باطل وتكذيب ولاتدل المثلية على التماثل فى نفس القول بل يحتمل أن من قبلهم اقترحوا غير ذلك وأن المثلية وقعت فى اقتراح ما لا يليق سؤاله وإن لم تكن نفس تلك المقالة إذ المثلية تصدق بهذا المعنى »(١).

وكذلك قوله تعالى « فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا(٢) ».

فإذا تجاوزنا اختلاف العلماء فى « بمثل » هل الباء زائدة أم مثل هى الزائدة أم لازيادة فى شىء منها، وهو الصحيح، فإن الذى لاخلاف فيه أن مثل هنا لتشبيه إيمان بإيمان فى أن كلا منهما صدق، والإيمان أمر معنوى معقول لا محسوس، وغير ذلك وارد فى القرآن الحكيم، إذن فإن ما ذهب إليه ابن العربى ليس بمسلم له لمجىء أفصح الأساليب على خلافه.

وفى حديث له ﷺ جاءت هذه العبارة :-

« تعرض الفتن على القلوب مثل الحصير عودا عودا(٣) ».

وعرض الفتن على القلوب أمر معنوى معقول، وليس محسوساً ففى الكلام تشبيه معنى بحسى لاتشبيه حسيين كما هو مقتضى كلام ابن العربى :؟

ومن الشعر الفصيح المحتج به عند علماء اللغة العربية :

تزود مثل زاد أبيك فينا ... فنعم الزاد زاد أبيك زادا(٤)

---

(١) البحر المحيط لابن حبان (جـ ١ ص ٣٦٧).

(٢) انظر المحيط والكشاف وتفسير ابن السعود فى تفسير هذه الآيات من سورة البقرة الجزء الأول.

(٣) الترغيب والترهيب.

(٤) البيت لجرير انظر شرح المفصل لابن يعيش (جـ ٦ ص ١٣٢) والموازنة للآمدى (١/ ٢٩٢).

والمعنى: تزود فينا زادا مثل زاد أبيك. والمراد بالزاد الممدوح هنا إنما هو صنائع المعروف الجميل وليس زادا حسيا.

الفروق كما ينبىء عنها الاستعمال بين مِثل ومَثل

لم يستقم ما ذكره ابن العربى من فرق بين مَثَل ومِثْل لمخالفة الكلام الفصيح لما قال. وتحديد الفرق بينهما إنما يرجع فيه إلى النصوص الواردة فيها والموازنة بين دلالتها، وهذا ما نعرض له الآن، على أننا سنقدم البيان القرآنى فى الاستدلال - والاستشهاد، لأنه أبلغ الكلام وأفصحه، ونثنى بالبياء النبوى، لأنه أرفع أساليب البشر، ثم يستوى عندنا بعد ذلك كلام الأقدمين والمحدثين.

استعمال مثل

ففى حديث القرآن عن المنافقين جاء قوله تعالى:-

﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ ﴾ [البقرة: ١٧].

وقوله جل ثناؤه:

﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ * يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ﴾ [البقرة: ١٩، ٢٠].

فى الآية الأولى مثل الله حال المنافقين بحال من استوقد نارا وما استتبع ذلك من أوضاع تضامت وانتظمت فتكون من مجموعها الصورة المشبه بها.

وفى الآيتين (١٩ - ٢٠) مثل حالهم بحال ذوى صيب فيه ظلمات ورعد وبرق وتقلب أحوالهم النفسية فى خضم هذه الظاهرة المخيفة، وهى صورة حسية شبهت بها حال المنافقين وسلوكهم مع الدعوة وصاحبها ﷺ.

وفى فضل المنفقين فى سبيل الله وابتغاء مرضاته جاء قوله تعالى:

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ ﴾ [البقرة: ٢٦١].

وقوله تعالى :-

﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ﴾ [البقرة: ٢٦٥].

والمشبه به فى هاتين الآيتين صورة أو هيئة تركيبية تألفت من عدة عناصر، فهى فى الأولى حبة واحدة تفرعت عنها سبع سنابل (هكذا) وكل سنبلة أفرخت - مائة حبة (هكذا) وهى صورة حسية ماثلة أمام النظر لمن تأمل وهى صورة عجيبة إذ لاعهد للزراع بمثلها، تقرب للأفكار كيفية تكثير الله لثواب المنفقين المخلصين.

وهى فى الثانية جنة بربوة (هكذا) جنة فيها أشجار مختلفة متعددة، نزل - عليها مطر غزير فأثماها وباركها فأثمرت بما حلا وطاب وأمتع، كل نوع من أشجارها يثمر فى حينه وهكذا يستمر اثمارها فى كل حين فخيرها لاينقطع وثمارها (لامقطوعة ولا ممنوعة) فإن لم يصبها مطر غزير أصابها ما خف منه، فهى على كل حال جنة مثمرة لأن أعمال الخير تتفاوت فى نفسها ويتفاوت ثواب الله عليها. والله يضاعف لمن يشاء.

وسياق الآيات الأربع يدلنا على حقيقتين بارزتين:

أولاهما: أن القرآن الحكيم لم تر فيه كلمة «مَثَل» إلا مشبهة ومشبها بها وليست هى أداة تشبيه فى نفسها كما يدل عليه ظاهر كلام القوم.

والثانية: أنها لم تأت فيه إلا فى سياق تشبيه إما طرفاه مركبان معا كما فى تمثيلى حال المنافقين السابقين، أو أحد طرفيه مركب وهو - هنا - الثانى دائما، أى المشبه به، ولم تأت لتشبيه مفردين قط:

هذا منهج أسلوبى بيانى مطرد فى القرآن الحكيم ولم يتخلف فى موضع واحد من مواضع ورود «مَثَل» فيه:

استعمال «مِثْل»

أما «مِثْل» فدلالتها فيه تختلف عن دلالة «مثل» اختلافا بينا ومن أمثلتها قوله تعالى:-

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾

[الكهف: ١١٠]

وقوله تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾

[الطلاق: ١٢]

وقوله تعالى: ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ [الأنعام: ١٦٠].

وقوله تعالى: ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾

[البقرة: ١٠٦]

وهذه الآيات الأربع تكشف لنا عن حقيقتين أخريين بارزتين:-

أولاهما: -أن القرآن الحكيم لا ترد فيه كلمة (مِثْل) إلا فى تشبيه طرفين لاتركيب فى واحد منهما، ولا تركيب فى وجه الشبه فالآية الأولى تفيد مجرد التشبيه والتنظير فى (العدد) بدليل اختلاف حقائق السموات عن حقائق الأرض.

والآية الثانية تفيد مجرد التشبيه والتنظير فى (النوعية) فالجزاء من جنس العمل والآية الرابعة تفيد مجرد التشبيه والتنظير بين معجزة قائمة وأخرى منسوخة أو -مُتَسّاة.

والحقيقية الثانية: أن (مِثْل) فى القرآن الحكيم إنما هى أداة تشبيه فلم تقع مشبهة ولا مشبها بها على خلاف كلمة (مَثَل) فيه حيث اختصت بالتراكيب وبكونها مشبهة أو مشبها بها لا أداة تشبيه.

وعلى هذا المنهج نفسه سار البيان النبوى الشريف فى إيراد هاتين الكلمتين.

فقد وردت فيه طائفة من الأحاديث بنى الأمر فيها على التمثيل بكلمة (مَثَل) مشبهة ومشبها بها للجمع بين صورتين أو تركيبين معناهما كلى لا أفرادى.

وقد جمع الإمام الترمذى(١) سبعة عشر حديثا منها، ومن ذلك قوله ﷺ (مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير).

وقوله:

(مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة).

وقوله:

«مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة منه..»

وقوله:

«مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن كمثل الأترجة، طعمها طيب، وريحها طيب، ومثل المؤمن الذى لايقرأ القرآن كمثل التمرة طعمها طيب ولاريح لها، ومثل المنافق الذى لايقرأ القرآن كمثل الحنظلة طعمها مر ولاريح لها، ومثل المنافق الذى يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب ولاطعم لها.

فهذه الأحاديث الأربعة مثل الآيات الأربع التى شبه فيها مَثَل بمَثَل فى أن طرفى التشبيه فيها مركبان إما معا، وأما الطرف الثانى هو المركب وذلك مطرد فيها وكذلك وجه الشبه لايأتى معها إلا مركبا ولاشأن لها قط بتشبيه المفردات. والمعانى التى اشتملت عليها الأطراف فى هذه التراكيب القرآنية والنبوية معان كلية يسهب مفسرها إذا أراد الإيجاز فى بيان دقائقها. كما أن كلمة «مَثَل» جاءت فيها مشبها ومشبها بها وليست أداة تشبيه، وهاتان الحقيقتان قد رأيناهما بوضوح فى النصوص القرآنية المتقدمة.

---

(١) ووردت متفرقة فى الصحيحين وغيرهما.

(دلالة مِثْل فيهما)

ودلالة مِثْل « فى الأدب النبوى كدلالتها فى القرآن الحكيم، فهى فيه أداة تشبيه للتنظير بين المفردين، ولا تركيب فى طرفى التشبيه معها. ومن ذلك قوله ﷺ »:

« إن أحدكم يُجمَع خلقُه فى بطن أمه أربعين يوما نطفة، ثم يكون علقة مِثْل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم ينفخ فيه الروح.. »[1].

وقوله:

« انه من أحيا سنة من سنتى أميتت بعدى فإن له من الأجر مثل من عمل بها.. »[2].

وقوله:

« ومن سن فى الإسلام سنة حسنة فعمل بها بعده، كتب له أجر من عمل بها، ولاينقص من أجورهم شىء، ومن سن فى الإسلام سنة سيئة فعمل بها بعده، كتب ـ عليه مثل وزر من عمل بها[3]... »

فلم تعْدُ مِثْل فى هذه النصوص أكثر من مجرد « التنظير » بين المدد الثلاث المكوثة فى بطن الأم فى الحديث الأول، ولا أكثر من مجرد التنظير بين أجر وأجر ووزر ووزر فى الحديثين الثانى والثالث.

وصفوة القول أن (مَثَل ومِثْل) تسيران فى القرآن الحكيم والبيان النبوى على منهج واحد ولا شذوذ فيه فيما نعلم.

مَثَلٌ خاصة بالتراكيب والمعانى الكلية، وهى إما مشبهة أو مشبه بها ولا تأتى أداة تشبيه قط ومِثْلٌ خاصة بالمفردات فى اللفظ والمعنى، وهى أداة تشبيه كيفما كانت.

---

(١) الشيخان وأبو داود والترمذى.
(٢) الترمذى باسناد حسن.
(٣) مسلم والترمذى.

دلالتهما فى التراث

وفى التراث العربى: شعره ونثره لم تختلف دلالتا الكلمتين عما ثبت لهما فى البيان القرآنى، والبيان النبوى ولكن فرقا جليا يلحظه الباحث بين هذه المصادر الثلاثة، لا من حيث اختلاف الدلالة، ولكن من حيث ورود الكلمتين (مَثَل ومِثْل) فيها.

فكلمة «مَثَل» وردت بكثرة فى القرآن الكريم والسنة المطهرة، وكذلك كلمة «مِثْل» وأما فى التراث الإسلامى فإن كلمة «مَثَل» نادرة الورود ندرة ملحوظة، فعلى كثرة ما أطلعت لم أعثر لها فى الشعر إلا على ثلاثة مواضع وفى النثر على موضع واحد.

أما كلمة «مِثْل» فهى كثيرة الورود فى الشعر والنثر، وهى فى الشعر أكثر منها فى النثر فيما رأى.

ولعل السر فى ذلك أن كلمة «مِثْل» أخف مؤنة من كلمة «مَثَل» وأن عقد المقارنات بين «الإفراديات» أكثر خطورا على قرائح الأدباء من عقدها بين الصور والتراكيب، فإذا احتاجوا لعقدها بينها أسعفتهم أدوات التشبيه الأخرى كالكاف وكأن فآثروها على كلمة «مَثَل» لخفتها.

وبقى سبب آخر أراه أصيلا فى هذا الملحظ، وهو أن الأصل فى «مَثَل» أن تستعمل فى كل ما اشتهر من صور المماثلات والتنظير، أو ما حقه أن يكون كذلك. أما كلمة «مِثْل» فإنها تستعمل فى المماثلات والتنظيرات الطارئة، أو ما حقه أن يكون كذلك.

ولهذا كانت «مِثْل» آلف عند الأدباء والشعراء من «مَثَل» فكثر طروقهم لها، لأنها أسلس انقيادا، وأوثر مهدا، وأوطأ ظَهْراً.

فمن النادر ما نقله الزبيدى عن ابن الأعرابى:-

من لم يضع بالرملة المعاولا يلقى من القامة مَثَلاً ماثلا

وهو أحد تصاريف الكلمة ومعناها: جهداً جاهداً[1] فهو بهذا الاعتبار لم يُرد منه تشبيه شيء بشيء.

ومنه ما استشهد به البيانون فى التشبيهات المركبة:-

في شجر السر ومنهم مثل له رواء ومـــاله ثمـــر[2]

ومنه قوله كعب بن زهير فى لاميته المعروفة التى أنشدها أمام الرسول عليه السلام:-

كانت مواعيد عرقوب لها مثلا ومـا ومـواعـيـدها إلا الأباطيل

ومن النثر قول الإمام على رضى الله عنه وكرم وجهه: إنما مَثَلى ومَثَل عُثمان كـمَثَل أثْوار ثلاثة أسود وأبيض وأحمر كنَّ فى أجمه ومعهن فيها أسد، فكان لايقدر منهن على شيء لاجتماعهن.

فقال للثور الأسود والثور الأحمر: لايدلّ علينا فى أجمتنا إلا الثور الأبيض فإنه لونه مشهور، ولونى كلونكما، فلو تركتمانى آكله صفت لنا الأجمة: فقالا: دونك فكله، فأكله ثم قال للأحمر: لونى لونك فدعنى آكل الأسود لتصفو لنا الأجمة. فقال: دونك فكله فأكله ثم قال للأحمر: إنى آكلك الآن لا محالة؟ فقال: دعنى أنادى ثلاثا فجعل ينادى:

إلا أنى أكلت يوم أكل الثور الأبيض.[3]؟.

كلمة «مَثَل» فى هذه النصوص جاءت مشبها بها ومشبهه، وطرفا التشبيه معها تراكيب وليسا أفرادا، ووجه الشبه مركب مثلها وبيت ابن لنكك من التشبيه المقلوب - فيما أرى - لأنه جعل المتحدث عنها أصلا فى «العقم» ثم حمل شجر السرو عليهم، فهو على حد قول الشاعر:

في طلعة الشمس شيء من محاسنها وفي القضيب نصيب من تثنيتها

---

(١) تاج العروس (جـ٨ ص ١١٢).
(٢) الايضاح (١٢٢) والبيت لابن لنكك.
(٣) مجمع الأمثال (جـ١ ص ٢٥) وهو مثل يضرب لمن فرط ثم ندم.

أما كلمة «مِثْل» فكثيرة ذائعة، يستوى التمثيل لها وعدمه لشهرة ورودها. ومن ذلك الكثير قول الفرزدق يهجو جريرا:-

أولئك آبائي فجئنى بمثلهم واعتد أن أهجو كليبا بدارم(١)

وقوله:

ليس الشفيع الذى يأتيك مؤتزرا مثل الشفيع الذى يأتيك عريانا(٢)

وقول كعب بن سعد:-

مالام نفسى مثل نفسى لائم ولاسدّ فقرى مثل ما ملكت يدى(٣)

ومن أمثلتها فى النثر قول من اعترض على حكم رسول الله ﷺ فى دية الجنين الذى ولد ميتا بغرة.

«يا رسول الله: أأدى من لاشرب ولا أكل، ولا صاح فاستهل ومثل ذلك يطل(٤)».

وقول خالد بن صفوان يذم المزح:-

«يشق أحدكم أخاه مثل الخردل، ويفرغ عليه مثل المرجل، ويرميه مثل الجندل؟»

ثم يقول إنما كنت أمزح(٥).

فهذه ثمانى مرات ترد فيها كلمة «مِثْل» فلا تفيد أكثر من تمثيل مفرد بمفرد، وتنظير معنى بمعنى لاتركيب فى واحد منهما، ومثيل كمِثْل، ولم تعثر على شاهد لها إلا ما يساق فى المؤلفات فى شرح معنى التمثيل حيث يقولون:-

المَثَل والمِثْل والمثيل كالشَّبه والشَّبه والشبيه، وهذا القول مسوق على عواهنه

---

(١) معاهد التنصيص (جـ١ ص ٤٧).
(٢) بهجة المجالس لابن عبد البر (جـ٣ ص ٤١).
(٣) معجم الشعراء للمرزبانى (٤٣٢).
(٤) البخارى (٧-٢٦) ومسلم (٥-١١١) والبيان والتبيين (١-١١٢).
(٥) مجانى الأدب (٣-١٢٠).

للفروق الكثيرة بين «المَثَل» والمِثْل والمثيل من جهة وبين الشَّبَه والشِّبْه والشبيه من جهة أخرى، ولفارق مهم سوف نذكره بين مادة (م ث ل) عمزما، ومادة (ش ب هـ) ونثبت فى ما يلى أبرز ما نراه من فروق بين «مَثَل» بفتح الميم والثاء، «ومِثْل» بكسر الميم وتحمل عليها نظيرتها «مثيل»:

(أ) كلمة «مثَل» تأتى فى سياق التنظير بين الصور والهيئات، فلا يصاحبها فى هذا الشأن إلا التراكيب.

أما كلمة «مِثْل» فتأتى لمجرد التنظير والتشبيه بين مفردين، ولا شأن لها بالتراكيب.

(ب) كلمة «مثَل» تأتى فى سياق التشبيهات والتنظيرات المشهورة أو ما حقه أن يكون كذلك.

أما كلمة «مِثْل» فالأصل فيها ـ كما تفيد دلالة الاستقراء ـ أن تأتى للتشبيه العارض واللمحة البارقة.

(جـ) كلمة «مَثَل» لا تأتى إلا مشبها ومشبها به، وليست هى ـ فى نفسها ـ أداة تشبيه، كما يفهم من ظاهر الكلام، أما كلمة «مِثْل» فهى أداة تشبيه كيفما وقعت.

(د) كلمة «مَثَل» الأصل فيها أن تدخل عليها أداة تشبيه، وهى هنا الكاف وحدها كقوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة: ١٧].

وقوله تعالى ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

وقوله سبحانه ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ﴾ [الحديد: ٢٠] وقول الرسول ﷺ: (مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد...)[١] فإن لم تدخل عليها أداة تشبيه فهى للتأكيد، وإن صاحب حذف الأداة حذف الوجه صار التشبيه بليغا.

---

(١) البخارى.

أما كلمة (مِثْل) فلأنها هى نفسها أداة تشبيه فلا تدخل عليها أداة أخرى ودخول الأداة عليها نادر كقوله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ... ﴾ [الشورى: ١١] حتى ذهب بعض المفسرين إلى القول بزيادتها(١).

(هـ) كلمة (مَثَل) شائعة كثيرة الاستعمال فى البيان القرآنى والبيان النبوى وهى تؤدى فيهما دورا بيانيا عظيم الشأن فى التربية والتوجيه والتوضيح، وتبرز مكنونات المعانى والأحاسيس والمشاعر فى معارض بلاغية آسرة فيها للعقول إقناع، وللعواطف امتاع أما فى أدب البشر من الشعراء والناثرين فهى نادرة الورود قليلة الماء.

* * *

(١) رد القول بالزيادة العالم الملهم المرحوم محمد عبد الله دراز، ولم يكتف بنفى الضرر من وجود « الكاف » مع « مثل » بل أثبت لها مزايا بيانية قيمة (نظرات جديدة فى القرآن (١٣٢).

obeikandl.com

(دلالتا شبْه ومِثْل)

ظاهر كلام المصنفين أن (شبه ومثل) دلالتهما واحدة، لذا تراهم يقابلون بين مَثَل وشَبَه ومِثْل وشِبْه، ومثيل وشبيه ولكن التذوق والواقع والاستعمال، كل هذه المصادر تشعر بوجود فارق كبير بين دلالتى هذه الكلمات، فذوات الميم والتاء واللام معناها مباين نوعا ما لمعنى ذوات الشين والباء والهاء بعد التقائها جميعا فى أصل الدلالة وهى التنظير بوجه عام فإذا كان التشبيه يتحقق بوجود ـ وصف مشترك بين الطرفين أو أوصاف فإن من حق التمثيل أن يتعدى هذا الحد، فتكون دلالته على أن الطرفين يشتركان فى أوصاف كثيرة حتى يظن أن كلا من الطرفين هو الآخر، أو يشتركان فى جمع الأوصاف وتكون المماثلة ـ عند التحقيق ـ غير المشابهة فالمماثلة تقتضى الاشتراك فى جميع الأوصاف المعتبرة والشابهة تقتضى الاشتراك فى وصف واحد، أو أوصاف بحيث يكون المختلف فيه أكثر من المشترك فيه وفى المماثلة يصلح كل من الطرفين لأن يكون مشبها به لانعدام التفاوت بينهما، فليس واحد منهما أصلا ولا الثانى فرعا محمولا عليه، بل ذلك من خواص التشبيه، فإذا خرج به على هذا النسق عدّ التشبيه مقلوبا وليس هذا بوارد فى التمثيل.

والدليل على ذلك أن القرآن الحكيم وكذلك الحديث الشريف، جاءت فيه (مثل) أداة للتشبيه فى ما فيه مماثلة، تامة بين الطرفين، ومن ذلك ﴿ **اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ** ﴾ [الطلاق : ١٢] لأن المراد مجرد التساوى فى العدد (سبع وسبع) ولاتفاوت في هذا الوجه.

وقوله تعالى : ﴿ **فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ** ﴾ [فصلت : ١٣]

ومن الأحاديث مرت طائفة فيها مماثلة، تامة بين مدة مكث خلق الانسان فى بطن أمه أربعين يوما لكل طور من الأطوار الثلاثة النطفة والعلقة والمضغة،

ومماثلة تامة بين أجر وأجر، ووزر ووزر وهذا المعنى الذى تفيده (المماثلة) هو المغنى الذى يفيده (التشابه) بين الطرفين، المستشهد عليه بقول أبى اسحق الصابى:

تشابه دمعى إذ جرى ومدامتى فمن مثل في الكأس عينى تسكب
فوالله ما أدرى أبا الخمر أسبلت جفونى أم من عبرتى كنت أشرب(١)

قال العباسى معلقا عليهما:

والشاهد فى هذا ترك التشبيه، والعدول إلى الحكم بالتشابه! ليكون كل واحد من الشيئين مشبها ومشبها به، احترازا عن ترجيح أحد المتساويين فى وجه الشبه فإن الشاعر لما اعتقد التساوى بين الخمر والدمع، ولم يعتقد أن أحدهما زائد فى الحمرة والآخر ناقص يلحق به حكم بينهما بالتشابه وترك التشبيه(٢).

وهذا ملحظ دقيق المسلك يستبين به الفرق بين دلالتى التمثيل والتشبيه بالمعنى الذى أشرنا إليه، وبه يظهر ما فى التسوية بين هذه الأدوات من تسامح فقد رأينا الفروق بين دلالة (مَثَل) ودلالة (مِثْل) ثم الفرق بين دلالة التمثيل التشبيه وأن اشتركا فى الأصل العام للدلالة، وهو التنظير والاتفاق، وهذا سر من خصائص اللغة العربية التى اختارها الحكيم الخبير لغة لكتابه ووعاء لوحيه الصادق الأمين الذى أعجب أرباب اللسن وأمراء البيان.

(الحكمة والمثل فى الاصطلاح)

نبدأ حديثا هنا بسؤال: ما الفرق بين الحكمة والمثل فى الاصطلاح؟ أهما بمعنى واحد أم مختلفان؟

والإجابة تتلخص فى الآتى:

حقيقةً يُطلق على المثل حِكمة، ومجازا أو اتساعا يُطلق على الحكمة (مثل).

---

(١) يتيمة الدهر (٢ - ٢٣٣).

(٢) معاهد التنصيص (جـ ٢ ص ٥٩).

هذه خلاصة موجزة وأمينة لصلة الحكمة بالمثل، وصلة المثل بالحكمة.

فالمثل حكمة، والحكمة ليست مثلا، فهما ـ كما يقال ـ بينهما عموم وخصوص. والصحيح هو التفرقة بينهما على الوجه الذى قدمناه وإن كان بعض الباحثين يسوى بينهما ولا يفرق.

وقد نقل الميدانى حملا فى تعريف المثل وحده، فنقل عن المبرد قوله: المثل مأخوذ من المثال وهو قول سائر يشبه به حال الثانى بالأول والأصل فيه التشبيه(١) ثم استطرد فقال:

(فحقيقة المثل ما جعل كالعلم للتشبيه بحال الأول كقول كعب بن زهير:

كانت مواعيد عرقوب لها مثلا وما مواعيدها إلا الأباطيل

فمواعيد عرقوب علم لكل مالا يصح من المواعيد(٢).

ثم ذكر رأى ابن السكيت: المثل لفظ يخالف لفظ المضروب ويوافق معناه معنى اللفظ، شبهوه بالمثال الذى يعمل عليه غيره.

ثم قال: «وقال غيرهما: سميت الحكم القائم صدقها فى النفوس أمثالا، لانتصاب صورها فى العقول مشتقة من المثول الذى هو الانتصاب(٣)».

وفى نقل الميدانى عمن لم يسمه الجمع بين الحكم والأمثال، فقد قال: سميت الحكم الماثل صدقها فى العقول أمثالا.

ومعنى هذا أن ما تحقق صدقه من الحكم فهى أمثال وحكم معاً. وما لم يتحقق صدقه منها فهى حكم.

أما أبو هلال فقد فرق بين الحكمة والمثل بأن المثل حكمة فى الأصل، ولكنه سار واشتهر فصار مثلا، وهذا نصه:

«ثم جعل كل حكمة سائرة مثلا، وقد يأتى القائل بما يحسن أن يتمثل به

---

(١) انظر مجمع الأمثال (جـ ١ ص ٢٥ ـ ٢٦).

(٢) انظر مجمع الأمثال (جـ ١ ص ٢٥ ـ ٢٦).

(٣) جمهرة الأمثال (جـ ٧ ص ٧) ت: تحقيق د. عبدالمجيد قطامش وأبو الفضل ابراهيم.

ألا أنه لايتفق أن يسير فلا يكون مثلا »[1] وكلام أبى هلال غير دقيق إذ جعل الفرق بين الحكمة والمثل مجرد الشهرة؛ لأن من الحكم ما هو سائر مشهور ولا يطلق عليها « مثل » .

والتفرقة الحقة بين الحكمة والمثل إنما تكون على الوجه الآتى :

المثل لابد فيه من ستة أمور :

١ ـ الايجاز ٢ـ الاصابة ٣ـ التشبيه ٤ـ الشهرة ٥ـ المورد ٦ـ المضرب .

فهو « قول مزجر صائب مشهور يشبه فيه مضربه بمورده، وهذا الضابط بين مستقى من أقوالهم المتعددة فى تحديد المثل .

أما الحكمة فتشترك مع المثل فى :

الاصابة ـ الايجاز، وليس التشبيه ولا المضرب من شروطها، وقد تشاركه فى الشهرة، ولكن لاتخرج بها عن معنى الحكمة لعدم إفادتها التشبيه وبهذا يتضح الفرق جليا بين ما هو مثل حقيقة، وما هو حكمة، وبدهى أن تشبيه المضرب بالمورد هو أهم ما بين الحكمة والمثل من فروق فهو فصل المقال بينهما .

* * *

تحليل صور من الحكم والأمثال

اتضح لنا الفرق نظريا بين الحكمة والمثل فى الفقرات السابقة، وهذه صور منها يتضح لنا الفرق عمليا منها بين الحكم والأمثال:

* رأس الحكمة محافة الله.
* العقل السليم فى الجسم السليم.
* الحياء نظام الإيمان (نسبه الشريف فى المجازات النبوية للنبى عليه السلام).
* ماحك جلدك مثْل ظفرك.
* الغنى فى الغربة وطن، والفقر فى الوطن غربة؟
* إذا أقبلت الدنيا على شخص أعطته محاسن غيره، وان أدبرت عنه سلبته محاسن نفسه. (من كلام الامام على فى نهج البلاغة).
* العيال سوس المال.
* المرء كثير بإخواته.
* شهداء الحق أيتام الخلق. من الأقوال المعاصرة:
* الدنيا جيفة فان أردت منها شيئا فاصبر على مهارشة الكلاب.
* أحسن إلى من شئت تكون أميره: واستغن عمن شئت تكن نظيره: واحتج إلى من شئت تكن أسيره؟ (من كلام الإمام على رضى الله عنه).

هذه الأقوال كلها حكم لا أمثال: إذ لم يرد به تشبيه المناسبة التى قيلت فيها بالمناسبة التى وردت فيها لأول مرة. وإنما يذكرها من يذكرها فى درج الكلام لإيضاح معنى أو تقريره وتوكيده: وبعضها يشترك مع المثل والشهرة والذيوع كالحكمة الأولى والثانية والرابعة والسابعة.

وكلها تشترك مع المثل فى الإيجاز والصدق والاصابة وقوة التأثير فى النفس.

فلا حكمة مثل مخافة الله، والجسم إذا لم يكن به إلا مرض العقل فكفاه مرضا.

والحياء يحفظ الإيمان كما يحفظ النظم حبات العقد. والإنسان لايجيد أداء واجباته ومواجهة مشكلاته أحد سواه. والغنى يجد راحة واحتفاء فى كل مكان نزح إليه أما الفقير فلا وزن له فى حساب الناس ولو بين أهله وعشيرته، فإذا اغترب ازداد هوانا.

والناس يجلون من ملك مالا أوخاها وينسبون إليه فضائل ليست فيه تملقا ونفاقا.

ومن تعاديه الدنيا عاداه معها الناس وعدوا محاسنه مساوىء؟ وفى هذا المعنى يقول القطامى:

الناس من يلق خيرا قائلون له ما يشتهى ولأم المخطىء الهبل

ويقول آخر:

تحالف الناس والزمان فأينما كان الزمان كانوا
عادانى الدهر نصف يوم فانكشف الناس لى وبانوا

ويقول ثالث فيحسن أيما احسان:

إذا محاسنى اللائى أدل بها عدت عيوبا، فقُل لى كيف اعتذر

وذو العيال كثير النفقة فكأن من يعولهم آفات لما له يبددون فى يوم ما يجمعه فى شهر.

والاخوان المخلصون زينة فى الرخاء وعون فى البلاء يثقل بهم وزن صديقهم ويشتد أمره.

والذين يقولون الحق لايرضون الناس، لأن الحق تقبل محمله على ذوى الأهواء وأنصار الزيف والباطل، يحبون المنافق اللئيم، ويبغضون الجرىء الأمين: فهو يتيم الكبار فى الأرض ثقيل الظل كأن كلامه علقم يتجرعه السامع ولايكاد يسيغه؟

والاحسان إلى الناس: وبخاصة الكرام الطبع منهم يملك عليهم مشاعرهم

وقد جبلت النفوس على حب من أحسن إليها: فاللهم لاتجعل لفاسق على يدا فيحبه قلبى(١).

كما أن الاستغناء عما فى أيدى الناس يضع صاحبه فى درجة مساوية لهم لا عليه ولا له وفى الأثر. «أزهد فى ما فى أيدى الناس يحبك الناس».

أما الاحتياج إلى الناس فنتيجته على النقيض من الإحسان إليهم: فيصبح المحتاج أسيرا لهم لا يخالف لهم أمرا، ولايعصى لهم هوى، أنه رق مقنع تنحط فيه الأقدار وتنقلب الموازين.

فها أنت ترى صدق تلك «الحكم» وإصابتها مقاتل المعانى؛ فهى زبدة تجارب ـ ذكية، ووليدة فكر حصيف.

ولو لن يكن فى هذه «الحكم» إلا فضيلة الإيجاز لكفاها سحراً وجمالا، فكيف إذا انضم إليه صدق المعنى واحكام النظم وروعة التأثير وشاعت فيها الفنون البلاغية بلا تكلف ولا استكراه.

فتأمل سحر الاستعارة المكنية فى رأس الحكمة، والسجع اللطيف فى:

العقل السليم فى الجسم السليم، والتشبيه البليغ الآسر فى «الحياء نظام الإيمان» والكناية البديعة «ماحك جلدك مثل ظفرك» وقارنها بقول طرفة بن العبد:

إذا كنت لاتستطيع دفع منيّتى فدعنى أبادرها بما ملكت يدى

تجدها أجمل موقعا، وأكثر دلالة، وأبدع خيالا، وأوجز لفظا.

والمقابلة الحكيمة والعكس والتبديل فى: الغنى فى الغربة وطن، والفقر فى الوطن غربة..؟

وكذلك الاستعارة المكنية والمقابلة الجميلة فى إذا أقبلت الدنيا على شخص أعطته محاسن غيره، وان أدبرت عنه سلبته محاسن نفسه؟.

والتشبيه البليغ فى «العيال سوس المال وما يشى به من خيال بديع»

ومثله التشبيه البليغ والجناس المسجوع فى «شهداء الحق أيتام الخلق» وروعة

---

(١) آثر وارد.

الاضافة فى «ايتام الخلق» أى أنهم ليسوا ايتاما حقيقة، ولكن الناس يعاملونهم معاملة الأيتام فلا يكترثون بهم، لأنهم ليس لهم آباء أحياء يتملقهم الناس بالإحسان إليهم.

واقرأ الحكمة العاشرة بشعبها الثلاث تجد لها حلاوة وسحراً وقوة ألفاظ وإحكام بناء وتآزر معان؛ وحسن تشبيه وأنغام أسجاع، حتى لتبدو وكأنها عقد مرصع ضم إلى روعة نظمه كرم معادنه. نعم: ان من البيان لسحرا.

أما الحكمة الأخيرة (الدنيا جيفة فإن أردت منها شيئا فاصبر نفسك على مهارشة الكلاب فهى من أبلغ ما قيل فى ذم الدنيا وطلابها الذين لاهم لهم سواها فهى تطالعك بتشبيه بليغ يشى بمعنى رائع، صارت الدنيا فيه «جيفة» فهى فى أول أمرها تبدو صيدا سمينا، ولكن سرعان ما تتعفن وتبلى، فتزهدها الطباع السليمة، بل تنفر عنها نفورا.

ثم تنتهى بك ـ أى الحكمة ـ باستعارة أليفة بينها وبين المطلع عرى وثقى صار فيها طلاب الدنيا النهمون «كلاب» وهذه الاستعارة قد مهد لها التشبيه فى المطلع «جيفة» والخيال يجمع بينهما «الجيفة والكلاب» جمعا لايكاد ينفك، وهذا هو المجاز المرشح فى أدق صورة وأبهاها، وفيها ـ فوق ما تقدم فن بديعى يسمى «مراعاة النظير» وضابطه أن تجمع فى الكلام بين لفظين فأكثر إذا ذكر أحد النظيرين أو النظراء لاح فى الشعور ذكر الآخر، لأن النظيرين أو النظراء يربط بينها الخيال فى دائرة واحدة ـ فهى تتداعى فيه تداعى المعانى المتآلفة(١).

وقارن المعنى المدلول عليه بـ«مهارشة الكلاب» وهو ما يحدث من الكلاب من تحرش حول الجيفة بمنازعة طلاب الدنيا بعضهم بعضا للفوز بها، والخصومات التى تجرى بينهم حولها، تجد بين المعنيين ألفة وعناقا حتى أصبحا شيئا واحدا، ذاك هذا وهذا ذاك، فما أروع هذا الكلام، وما أخطر دور البلاغة فيه.

* * *

(١) هذا الضابط الذى ذكرناه ليس موجودا بلفظه فى كتب الأقدمين ولا فى بحوث ـ المحدثين، ولكن ما ذكروه فى حده لاينافى ماذكرناه، وهو أضبط فى المسألة.

ان كل ما تقدم حكم لا أمثال، وقد يختلط الأمر بينهما فتعد الحكم أمثالا، وهذا كثيرا ما يقع، والعذر فيه بين إذ لا فرق بينهما من حيث الصياغة والتركيب والخصائص البيانية، وإنما الفرق بينها فى أمور خارجية لا شأن لها بالتراكيب والبناء التركيبي، والنظام اللغوى لكل منها والتشبيه والمورد والمضرب الذى هو عمدة المثل ليس فى الكلام ما يدل عليه، وإنما هو تشبيه مضمر فى نفس الضارب للمثل، فهو فعل من أفعال النفس يدرك ـ بالملابسات وقرائن الأحوال، وليست له أداة فى اللفظ، ولا هو من قبيل التشهبيات ـ المصرحة التى تذكر فيها الأداة أو نقدر إذا لم تذكر وسيأتى بيان هذا بالتفصيل، وكما قدمنا طائفة من الحكم وكشفنا عن خصائصها وأصولها البلاغية، نذكر فيما يأتى طائفة من الأمثال وننهج فيها نفس النهج المتقدم.

تحليل صور من الأمثال

* أنك لاتجنى من الشوك العنب(١).
* قبل الرماء تملأ الكنائن(٢).
* رمتنى بدائها وانسلت(٣).
* الصيف ضيعت اللبن(٤).
* قطعت جهيزة قول كل خطيب(٥).
* الحليم مطية الجهول(٦).
* إن المنبت لا أرضا قطع، ولا ظهرا أبقى(٧).

---

(١) جمهرة الأمثال (جـ١ ص ١٠٥) مجمع الأمثال (٢ ص ١٢٠) المستقصى (جـ١ ص ٤١٦).
(٢) المستقصى (جـ٢ ص ١٨٦).
(٣) نفس المصدر (جـ٢ ص ١٠٣).
(٤) مجمع الأمثال (جـ٢ ص ١٠).
(٥) جمهرة الأمثال (جـ١ ص ٣٥١) المستقصى جـ١ ص ٢ مجمع الأمثال (جـ١ ص ١٤٢).
(٦) جمهرة الأمثال الجزء الأول.
(٧) مجمع الأمثال (جـ١ ص ٧) والمستقصى (جـ١ ص ٤١٠).

هذه كلها أمثال لاحكم اصطلاحية، وإن كانت حكم من حيث صدقها وقوة تأثيرها وإيجازها ووفرة معانيها، وإنما تمحضت للأمثال لأن لكل قول منها موردا، أى حالة أولى قيلت فيها. ومضربا، أى حالة أو حالات أخرى تردد فيها، وكل ذلك منصوص عليه فى مصادرها التى أشرنا إليها فى الهامش، فليراجعها من شاء، والذى نعرض له الآن إنما هى المضارب التى يحسن التمثيل بها فيها، والخصائص البلاغية والأصول الفنية التى حيكت هذه المأثورات، على أننا سنخص المثل الأخير بفصل بيان لسبب سنذكره عند الحديث عنه بإذن الله.

* * *

المثل الأول لأكثم بين صيفى ويضرب لكل امرىء صنع شراً فجوزى بمثله، وفى معناه ورد: كما تدين تدازو الجزاء من جلس العمل. وقد نظم هذا المعنى شعرا ومنه:

أن تزرع الشر تحصد فى عواقبه ... ندامة، ولحصد الزرع ابان
إذا وترت امرأ فاحذر عداوته ... من يزرع الشوك لايحصد به عنبا

هذا المثل قانون مطرد من قوانين الحياة، وجماله فى صدقه، وفى تشبيهه مطلق الشر بالشوك، لأن كلا منهما مؤذ، ومطلق الخير بالعنب، لأن كلا منهما له حلاوة تستطيبها النفس وتستريح إليها، وهو فى جملته إما استعارة تمثيلية بحسب تركيبه اللغوى شبهت فيها حالة من يرجو الإحسان من الاساءة بحالة من يبحث عن العنب فى كومة شوك.

أو كناية عن شدة الحمق عند من لايعرف حقائق الأمور فهو كمن يبحث فى الماء عن جذوة نار على حد قول الشاعر:

ومَكلف الأيام ضد طباعها ... مستطلب فى الماء جذوة نار

وقول الآخر:

اياك تجنى سكرا من حنظل ... فالشىء يرجع فى المذاق لأصله

والمثل الثانى: قبل الرماء تملأ الكنائن يضرب فى الحث على الاستعداد للأمر قبل الأخذ فيه فذاك أقوى الأسباب الموصلة للمطلوب. وهذه سنة مطردة من سنن الحياة فالله قد جعل لكل شىء سببا، وربط بين الأسباب ومسبباتها ربطا حكيما. ومن يطمع فى المسببات، دون الأخذ فى الأسباب عظمت خيبة الرجاء عنده وفى ذلك يقول مثل آخر: قبل الرمى يراش السهم)[1] وهما بمعنى واحد وقد نظم هذا المعنى شعرا فى قول بعضهم:

ترجو النجاة ولا تسلك مسالكها إن السفينة لاتجرى على اليبس

وقد أدرك العقلاء أن الأخذ فى الأسباب يدفع اللوم إذا لم يتحقق المطلوب ومن مأثورهم فيه قول الشاعر:

وعلى أن أسعى وليس على إدراك النجاح

وقول الآخر:

لا تلم عزمى إذا السيف نبا صح منى القصد والسيف أبى

أما بناؤه البلاغى، وفقهه البيانى فهو النكتية عن المبادرة إلى إعداد العدة ـ للأمر قبل الشروع فيه، وفيه من ايجاز الحذف بعد إيجاز القصر حذف الفاعل وبناء الفعل للمفعول (تملأ الكنائن) والأصل: يملأ الرامى الكنائن. وفى هذا الحذف من انفخامه ما فيه، لأن المعول عليه فى هذا المجال هو أن تكون الكنائن مملوءة وصالحه للعمل؛ بصرف النظر عمن ملأها، الرامى أم غيره.؟

أما المثل الثالث: رمتْنى بدائها وانسلت فمضربه كل حالة تنصل جان فيها مما جناه ونسبه إلى غيره من الأبرياء، وهذا ما أكثر وقوعه فى دنيانا، ولو أن الجناة قصروا دفاعهم عن أنفسهم بنفى ما جنوه لهان الخطب، ولكن إلصاقهم ماجنوه بغيرهم هو الداهية الدهياء.

وليس لمن أصيب بسهامهم عذر أبلغ ولا أقطع من أن يردد هذا المثل:

---

(١) وأمثال ابن سلام (٢٣٣).

رمتنى بدائها وانسلت. وانها كلمات ثلاث يعجز دهاة المحامين عن أن يأتوا بمثلها فى حلبة الدفاع ولو سودوا عشرات الصحائف.

وهذا المثل على قصره بديع النظم، شديد الايحاء غزير المعنى، كشيف الظلال.

ففيه استعارة «الرمى» للاتهام، والاتهام أمر معنوى، أما الرمى فحسى لايكون حقيقة إلا للاجسام كحجر ونحوه. واستعارة المحسوس للمعقول فيها تجسيم للمعقول حتى لكأنه يحس ويرى والمرمى به داء فهو - إذن - رمى مهلك، وزاد من قبح الرمى إضافة المرمى داء إلى ضمير الرامى دائها فلهذه الاضافة روعة لايخفى أثرها على ذى فقه بمرامى الكلام، ولو قال: رمتنى بداء وانسلت لذهب من المثل شطر جماله وتأمل سحر الاستعارة فى انسلت فإنك تحس بما لها من لطف ورشاقة، فهى شعاع رقيق يومض أمام ناظريك ولايلبث أن ينمْاع فكأنك لم تر شيئاً قط، ثم قارنها بما لو قال: «وذهبت» تجد الفروق بين التعبيرين جد شاسعة.

والمثل الرابع: الصيف ضيعت اللبن يضرب فى شأن كل من أضاع خيرا كان ينعم فى ظلاله، ثم طلبه بعد فوات الأوان، وهذه الكلمات الثلاث التى قالها شيخ لمن كانت زوجا له منذ مئات السنين كان يمكن أن تذهب هباء لولا ما تحمله من معان راقت فرددتها الأفواه فى مناسباتها وعلقت بالشمس شهرة وذيوعا.

وهو فى أصله التركيبى خبر لم يرد منه فائدته ولا لازمها كما يراد من الأخبار فى أصل وضعها، وإنما أريد منه التذكير بالقصور وخطل الرأى المقترن به التوبيخ وهو آلم فى النفس من النضح بالسهام، إذ ليس آلم على النفس من توبيخها على خير أضاعته فى لحظة طيش هى أشد ما تكون حاجة إليه ساعة مواجهتها بالتوبيخ، واللبن فى المثل من جوامع الكلم، فلا يراد به خصوص اللبن بل كل خير وفضل يقيم الأود ويصون ماء الوجه.

أما المثل الخامس: قطعت جهيزة قول كل خطيب فمهما قيل فى جهيزة هذه من وصفها بالخرق والحمق، فهو الضوء الأحمر المؤذن بقطع كل كلام لأن جهيزة جاءت بفصل المقال، ومورد هذا المثل أن حيا من أحياء العرب قتل رجلا من حى آخر، فاجتمع الخطباء من مريدى الاصلاح ليترددوا لأولياء القتيل يأخذ الدية، فدخلت عليهم أمة يقال لها جهيرة وقالت: لقد ظفر بعض أولياء الدم بالقاتل فقتلوه وهنا تعادلت كفتا الميزان وسكت الخطباء بقيل قطعت جهيزة قول كل خطيب فصار مثلا يضرب لكل حالة انتهى الجدل فيها، وصارت جهيزة رمزاً لكل حاسم أمر. ولست أدرى لماذا يصف الكاتبون جهيزة هذه بالحمق فإن كان ما قالته حقا فهى ليست بحمقاء، وإن كان باطلا وكذبا فهى لم تقطع أقوال الخطباء، فإما أن يبقى المثل صحيحا مع سلامة جهيزة من الحمق، وإما أن يمحى المثل ويمحى معه ذكر جهيزة ـ فلا هى حمقاء ولا فطنه؟!

وى المثل استعارة القطع للإبطال، والإبطال أمر معنوى والقطع لايكون إلا للأجسام المحسوسة، وفى هذا تنزيل للمعقول منزلة لمحسوس لابرازه فى صورته مبالغة فى بيان أثر قول جهيزة فى حسم الأمر والفصل فيه فصلا قويا.

والمثال السادس: الحليم مطية الجهول، أى العاقل الحليم يحتمل نزق الأحمق اللئيم كما تحمل المطية ممتطيها، ويضرب فى كل حالة اتسع فيها صدر الكريم لتفاهة الحمقى، وصبر على أذاهم ولم يقم لهم وزنا.

والمثل على إيجازه فيه صورتان بلاغيتان فهو تشبيه بليغ ينم عن خيال موح؛ وفيه طباق بين الحليم والجهول، وفى العدول عن «الجاهل» إلى «الجهول» وهو صيغة مبالغة فيه، حسن رعاية لفضل الحليم وقوة احتماله، فهو مادام يحتمل كثير الجهل فإن احتماله لقليله من المسلمات التى لاتقبل جدلا.

* * *

المثل السابع

وعدنا أننا سنفصل هذا المثل تفصيلا نستقصى فيه جوانب القول والسبب أنه جزء من حديث، فله شرف النبوة وكرامة الوحى. وعصمة الرسالة.

وللحديث سبب ورود يراجع فى مظانه، وقد قاله عليه السلام لرجل يشتد على نفسه فى العبادة، فنصحه عليه السلام بالاعتدال فيها وكان مما قال «إن المنبت لا أرضا قطع، ولا ظهراً أبقى» فصار يضرب به المثل وهو أبلغ الأمثال فى بابه، يضرب لمن يستعجل فى عمل استعجالا يوهن عزمه، ويبدد طاقته، ولايتحقق معه المطلوب لعجزه عن مواصلة العمل.

الفروق بين الحكم والأمثال

تشيع فى هذا المقطع من الحديث الشريف كثير من خصائص النظم وإحكام البناء والقيم البلاغية مما لا نظير له من كلام الناس، وتكسوه حالة من جلال النبوة كلما لمستها ازددت بها اعجابا وغمرتك أنسا.

فهو فى جملته استعارة تمثيلية شبهت فيها حالة من يغلو فى عمل ما ويبدد طاقته فى غير روية حتى يكل عن العمل ويفقد قدرته عليه دون تحقيق المقصد، بحالة من يزجر مطيه وبحثها على السير بلا هوادة، فتتعثر وتعطب دون الهدف بجامع ما يترتب على كل منها من اضاعة ما فى اليد بلا طائل مفيد ثم صار يضرب فى كل حالة مشابهة، وهو من جوامع كلمه ﷺ.

وهو فى تفصيله مفعم بدقائق النظم وأسرار البيان:

* وأول ما يطالعك التوكيد الحاصل بـ«إن» المؤذن بحصول مضمون الجملة عند حصول أسبابه، فالعجله غير المدروسة لايعقبها إلى الخسارة والندم، وقليل من ينجو منها، وحال المخاطب - هنا - لما كان يغلو فى أمر العبادة صار كأنه منكر لمضار الغلو، منزل منزلته وأكد له الخطاب بمؤكدين الأداة، واسمية الجملة ولم يزد عليهما، لأن الرجل لم يكن منكرا حقيقة، ولكنه مجتهد فى طلب المثوبة فنصح بما يليق بحاله.

* والمنبت فى اللغة المنقطع عن الركب مطلقا[1]، وكان حق الكلام أن يقال: ان ـ المتسرع « ولكنه عدل عنه إلى المنبت أشعارا بما يؤول إليه حاله « المتسرع » وهو الانبتات، فهو من اقامة المسبب مقام السبب، فهو مجاز مرسل علاقته المسببة أو السببية[2].

وفى معاجلةالمتسرع بمواجهة بما يؤول إليه حالة « الانبتات » وفاء بحق المعنى لأن المقصود هو التحذير من التسرع.

* ثم أنظر إلى تقديم المعمولين: أرضاً وظهرا، على عامليهما: قطع وأبقى وكان حق الكلام أن يكون: لاقطع أرضا ولا أبقى ظهرا « ولكنهما قدما فوليا حرف النفى. وفى هذا التقديم تعجيل بتصور الخسار الذى يقع فيه المتعجل، لأنه يهمه بالدرجة الأولى أن يحقق لنفسه النفع من عمله أيا كان سيرا أو غير سير وأن ـ يحتفظ بطاقته التى يستثمرها فى ممارسة العمل.

وسر هذا التعجيل المبادرة بالتحذير من الغلو المفضى الى الخسارة والتندم.

* وقد حرص عليه السلام أن يجمع بين ضياع الطاقة وبقاء العبء الذى يتطلب استمرار العمل لإنهائه.

وهذا أبلغ فى تصوير مضار العجلة، لأنه لو اقتصر على ضياع الطاقة مع بلوغ القصد، أو على بقاء العبء مع سلامة الطاقة لكان ذلك أيسر على نفس المتعجل، ولم يف بالمراد من التنفير من المغالاة والعجلة، فكانت نهاية البلاغة فى الجمع بينهما.

* وبهذا تدرك جمال توسط حرف العطف بين الجملتين. لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى لأن الجملة الثانية قسيمة الأولى فى الحكم والمعنى فحق وصلهما بالواو لوجود المناسبة[3].

---

(١) انظر أمثال الميدان (جـ ١ ص ١٠).

(٢) يجوز انتزاع العلاقة من المذكور وهو المسبب فتكون العلاقة المسببة، ويجوز انتزاعها من المعدول عنه وهو السبب فتكون العلاقة السببية. وهذا يجرى فى المجاز العقلى كما جرى فى المجاز المرسل.

(٣) يطلق البلاغيون على هذه المناسبة.. الجهة الجامعة بين الجملتين، والجملة الثانية ـ هنا ـ شريكة الأولى فى الاعراب والمعنى لأنها جزء الخبر كما ترى.

*وأوثر «الواو» من بين حروف العطف، لأن المقام مقامه هو لا مقام غيره، ولو عطف بالفاء لفسد المعنى، لأنها تفيد الترتيب مع التعقيب، ولا معنى للترتيب هنا لأن ـ المعطوف عليه «لا أرضا قطع» متأخر وجودا على المعطوف (ولا ظهرا أبقى) وقطع الظهر أسبق وجودا من نفى قطع الأرض، فلو لم يعطب الظهر لما بقى العبءو والعطف يقتضى ترتيب السابق على اللاحق، وهذا فاسد كما علمت.

وكما بطل العطف بالفاء يبطل ببقية حروف العطف مثل ثم، ولكن، ويبقى المقام للواو وحدها.

يبطل العطف ب «ثم» لأن فيها ما فى العطف بالفاء من فساد المعنى. لاقتضائها الترتيب، والأمر على العكس كما تقدم، ثم لاقتصائها «التراخى» ولاتراخى هنا ـ كذلك، لأن بقاء العبء يحدث عقب قطع الظهير وتبديد الطاقة مباشرة.

وكذلك يبطل العطف هنا بـ«لكن» لافادتها الاستدراك، وهو نفى ما يتوهم إثباته أو اثبات ما يتوهم نفيه، ولا معنى له هنا بشقيه، فلا يصح أن يقال: لكن لا ظهرا أبقى لأن نفى قطع الأرض يقتضى هلاك الظهر، وزوال الطاقة الممكنة منه. فتقديم نفى القطع على اهلاك الظهر رافع الاحتمل توهم بقائه. ولذا تمتنع «لكن» هنا، كما امتنعت أختاه الفاء وثم، وهكذا البواقى.

* وإنما كان المقام للواو وحدها، لأنها تعطف السابق على اللاحق واللاحق على السابق وتعطف المتصاحبين. وهى فى الحديث لعطف السابق على اللاحق، لأن ـ بقاء الأرض بلا قطع حدث عقيب هلاك الظهر حدوثا يكاد يكون مصاحبا له لشدة قربه منه.

* وهذا ـ يعنى تقديم ما حقه التأخير ـ يقضى بنا إلى سؤال مؤاده إذا كان ـ إهلاك الظهر، أو تبديد الطاقة سابقا فى الحدوث على بقاء الأرض بلا قطع، فلم أخر فى النظم، وما سره البلاغى إذن؟

والجواب، ليس ببعيد ـ والله أعلم ـ أن يكون سر التقديم هنا لأن صاحب الطاقة المبذولة فى هدف ما، يقصد من بذل طاقته تحقيق ما أراده منها قصد أوليا، ويكون ذلك مطلوب نفسه، لأن الطاقة الموجودة محققة، والمطلوب ثمرتها فعوجل فى الحديث بفوات المطلوب، ليكون ذلك أعون له على التنفير من العجلة.

* وبقى من دقائق النظم فى الحديث تنكير كلمتى «أرضا وظهرا» ولهذا التنكير سر بلاغى ملحوظ، ومعلوم، أن من معانى التنكير التعميم والشمول وهذا، إذا وقع فى سياق النفى ازداد شمولا، ومؤدى التنكير هنا أن المتسرع بدد كل طاقته ولم يحرز أى نفع.

ولاريب أن هذا المعنى أوثق صلة بشدة التحذير من العجلة، التى هى مرمى هذا المثل الرائع حقا.

إنه مثل فريد فى باب بابه، توفرت فيه كل خصائص النظم المحكم البليغ، والمثل السائر، من حسن تشبيه وإيجاز وصدق وإصابة. وما قيل فى معناه لم يبلغ مبلغه من الروعة والجمال وإن كان فى نفسه بليغا.

وممن قال فى معناه القطامى الشاعر:

قد يدرك المتأنى بعض حاجته وقد يكون من المستعجل الزلل(١)

فهذا كلام أطنب فى مبناه من «إن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى» ولم يبلغ مبلغه من الصدق والاصابة فإن من حق الناقد، أن يأخذ على القطامى قوله «بعض حاجته» لأن فى التبعيض تزهيدا فى الروية والأناة، ولو أنه قال «جل حاجته» لكان أقرب إلى الهدف.

وقد جعل القطامى عاقبة العجلة «مجرد الزلل» وهو، وان وقع على وجه التكثير المستفاد من قد فأنه لايتم به كمال التحذير من العجلة لأنه فى نفسه درجات أما الحديث فقد نص نصاً على أن العجلة تبدد الطاقة ولاتحقق القصد. فهو أبلغ فى التحذير.

---

(١) الأمثال لأبى عبيد القاسم بن سلام (٢٣٣).

ولايقال أن القطامى جمع فى حديثه بين التأنى والعجلة معا، أما الحديث فخاص بالعجلة فلا يعد أوجز منه مبنى ولا أكمل منه معنى! فإن الحديث وأن كان منطوقه فى التحذير من العجلة، فإن مفهومه الترغيب فى الحلم والآباه.

وقد خلا بيت القطامى من روعة التشبيه والتمثيل الذى ورد عليه المثل النبوى.

وبيت القطامى على قصوره عن الحديث أبلغ من قول النابغة الذيبانى:

الرفق يمن، والأناة سلامة فاستأن حلمك فى أمورك تسلم(١)

فبيت القطامى خلا من التكرار، وبيت النابغة كرر فيه المعنى ثلاث مرات.

فقوله «الأناة سلامة» هو نفس قوله: «الرفق يمن» ثم عاد فكرر: فاستأن حلمك.. «وهو نفس قوله: والأناة سلامة، إلا أنه أوجز..

والمعنى الذى أراده النابغة من البيت كله كان يكفى فى تأديته فقرة واحدة من فقراته الثلاث.

الرفق يمن ـ الأناة سلامة ـ استان حلمك تسلم.

والفقرتان الأوليان أبلغ من الثالثة، لتأديتها المعنى مع فضيلة الإيجاز.

ومما قال فى معنى المثل النبوى ما يردده الناس كثيراً: فى التأنى السلامة وفى العجلة الندامة.

فهو نظير قول القطامى فى الجمع لفظا بين الترغيب فى الأناة والترهيب من العجلة إلا أنه ـ فيما أرى ـ أبلغ منه، لسلامته مما أخذ على القطامى مع اختصاصه بتوازن فقرتيه ـ والسجع غير المتكلف.

وأجود من قول النابغة، لأنه أعم منه معنى، ولسلامته من التكرار الذى وقع فيه النابغة.

وجميعها «دون المثل النبوى الحكيم، لما فيه من روعة التأثير، وإحكام البناء ودقائق النظم، وخلوه من الفضول والحشو.

---

(١) العمدة (جـ ١ ص ٢٨٥).

الفروق بين الحكم والأمثال

ويحسن بنا ـ الآن ـ أن نثبت فى إيجاز أهم الفروق بين الحكم والأمثال:

١ ـ الحكمة قول صائب وليدة التجارب تساق فى درج الكلام لتقوية المعنى وتقريره.

والمثل: قول صائب مشهور له مورد ومضرب ويراد منه تشبيه مضربه بمورده.

٢ ـ الحكمة قد تكون مشهورة كالمثل وشهرتها لاتدخلها فى حكم الأمثال لأنها لايراد منها التشبيه قط، ولاهى صالحة له.

أما المثل: فعدم شهرته لايخرجه عن حكم الأمثال مادام له مورد ومضرب ـ يصح تشبيه ثانيهما بأولهما.

واعتبار هذه الشروط فى الأمثال حمل بعض أهل العلم على القول بأن القرآن الحكيم لا أمثال فيه، بحجة أن القرآن لم يردد أمثالا قيلت قبله يشبه فيها مضربها بموردها حتى تتوافر فيه شروط المثل.

والواقع أن هذا ملحظ وجيه، وهو مع وجاهته لايمنع من القول بوجود الأمثال فى القرآن، على أن يكون ذكر المثل فى القرآن هو «المورد» لا المضرب، ويكون ذكره وترديده بعد وروده فى القرآن هو «المضرب».

فمثلا قوله تعالى ﴿ **وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ** ﴾ [فاطر: ٤٣]

وقوله تعالى: ﴿ **كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ** ﴾ [الطور: ٢١]

وقوله تعالى: ﴿ **إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ** ﴾ [يوسف: ٥٣]

وقوله تعالى: ﴿ **هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ** ﴾ [الرحمن: ٦٠]

هذه الآيات وأمثالها صالحة للترديد فى مناسبات كثيرة فيكون ترديدها هو

مضربها، وورودها فى الذكر الحكيم أولا هو المورد، ولاضير فى ذلك أبدا وبهذا تخرج من الحرج الذى أبداه بعض أهل العلم كما تقدم.

المثل والتمثيل

مثلما فرقنا بين المثل والحكمة يحسن أن نفرق بين المثل بمعناه المتقدم، وبين التمثيل.

* وقد سبق القول أن المثل ما توفر له حظ من الشهرة والوجازة، وأريد منه تشبيه مضربه بموردة، وخف جريانه على اللسان.

وما كان هذا شأنه، كان مثلا، لتوافر خصائص الأمثال فيه.

أما التمثيل فشيء آخر غير المثل، وإن صح أن يطلق على المثل؛ وعلى التمثيل مثل.

وعند المقارنة الدقيقة بينهما فانهما يفترقان، لإن التمثيل لايشترط فيه إلا التشبيه أما الوجازة والشهرة والمورد والمضرب فلا شأن لها به، وإن وجد بعضها فيه ـ لأن الفرق كبير بين وجود الشيء غير مشروط، وبين وجوده مشروطا.

والوظيفة البيانية فى المثل، هى مجرد تنظير حالتين شابهت إحداهما الأخرى ـ تشبيه المضرب بالمورد ـ ولايراد من المثل أكثر من هذا.

أما التمثيل، فله ـ بعد إفادة التشبيه والتنظير ـ أسرار بيانية تختلف من صورة إلى صورة، . وتتجلى تلك الأسرار فى التمثيل القرآنى، والتمثيل النبوى فى أبهى صورة وأروع بيان:

وللإمام عبد القاهر الجرجانى كلام قيم فى تحليل صور التمثيل ومكنون معانيها وشدة تأثيرها فى النفوس(١)، وقد حذا حذوه من جاء بعده من علماء البيان ومنهم الخطيب القزوينى(٢).

* والمثل ليس فى حاجة إلى أداة تشبيه تعقد شبها بينه وبين ما شبه به بل

(١) انظر أسرار البلاغة (٩٢) وما بعدها.
(٢) انظر الايضاح (١٢١) وما بعدها.

هو يساق بلا أداة، فلا يقال لمن أضاع فرصة خير كانت سانحة له ثم طلبها بعد الفوات، ولايقال له: أنت كمن ضيعت فى الصيف اللبن، لأن المثل يحكى على هيئته التى ولد عليها أول مرة. والتشبيه المجمع عليه فى المثل تشبيه مضمر فى النفس وليس مصرحا به فهو استعارة، وإنما أطلق عليه تشبيه لأن الاستعارة تعتمد التشبيه وتنبنى عليه.

أما التمثيل فالأصل فيه النص على أداة التشبيه، لأنه تشبيه حقيقى فإذا لم تذكر الأداة وجب تقديرها، ويكون حينئذ تشبيها مؤكدا لدعوى الاتحاد بين الطرفين.

وما ورد منه فى البيان القرآنى والبيان النبوى قد التزم فيه ذكر الأداة دائماً، سواء كان مدخولها لفظ «مثل» أو غيره ومن الأول قوله تعالى:

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾

[الجمعة: ٥]

وقوله تعالى: ﴿ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ ﴾

[الحشر: ١٥]

وقوله تعالى: ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ﴾ [الحديد: ٢٠]

ومن الثانى قوله تعالى: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ [الكهف: ٣٢]

وقوله تعالى: ﴿ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ ﴾

[الفتح: ٢٩]

وللقرآن الحكيم طرائق أخرى فى تراكيب التمثيل جديرة بأن تتبع ويستقصى القول فيها. ومنها:-

* أن يذكر المثل ابتداء دون أن يصدر بما يفهم أنه تمثيل ثم يعقب عليه

فيصرح بأنه تمثيل. ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴾

[محمد : ٣]

ومن أمثلته صدر آية سورة الفتح: ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ﴾ [الفتح: ٢٩]

* ومنها أن يصدر الكلام المراد التمثيل به بلفظ مثل، ثم لا يذكر بعده مشبها به بل يأخذ فى ذكر أوصاف تقوم مقامه. ومن أمثلة هذه الطريقة:

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ﴾

[محمد : ١٥]

وهذا التصرف فى التعبير حمل الكثيرين على أن يقولوا أن المراد من كلمة « مثل » فى هذه النصوص كلمة « صفة » أى ذلك وصفهم فى التوراة، ووصفهم فى الإنجيل وصفة الجنة التى وعد المتقون.

وممن ذهب هذا المذهب:

الجوهرى وابن سيدة، وقتادة وابن قتيبة وأبو السعود صاحب التفسير المعروف(١) وحكى الزبيدى أن النجاة يخرجون « مثل الجنة » على أنه مبتدأ خبره محذوف، أى: فيما يتلى عليكم مثل الجنة(٢).

والذى ذكره الزبيدى هو قول سيبويه وأضاف إليه صاحب إرشاد العقل السليم رأيين آخرين، أحدهما للنضر بن شميل الذى قدر الكلام هكذا: « مثل الجنة ما تسمعون » ومال صاحب الارشاد إلى ترجيحه(٣).

والذى حملهم على هذه التخريجات فيما أرى هو خلو الكلام من مشبه به مع التصريح بلفظ المثل.

---

(١) انظر ارشاد العقل السليم (جـ٥ ص ٥٨٨) وتفسير غريب القرآن (٤١٣) لابن قتيبة.
(٢) انظر تاج العروس (جـ٨ ص ١١٠).
(٣) انظر تفسيره (جـ٥ ص ٥٨٩).

طريقة أخرى للتمثيل

* وللتمثيل طريقة أخرى فى البيان القرآنى، لم يذكر فيها لفظ المثل، وإنما يكتفى - يذكر أداة التشبيه، ومن أمثلة هذه الطريقة قوله تعالى:

﴿ وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ. وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا ﴾

[النحل: ٩٠، ٩١]

« مثل حال من ينقض العهود والمواثيق بعد توكيدها بالأيمان بحال من غزلت غزلا - وقوته وشدته، ثم عادت فنقضت غزلها ونكثته[١] ».

فهذا تمثيل أو تشبيه تمثيلى لم يذكر فيه لفظ المثل، بل وفت أداة التشبيه فيه بالمراد.

وأمثلته فى القرآن الحكيم كثيرة:

والكلام فى هذا يطول، وما أردنا إلا التمثيل للاستعانة به على الكشف والإيضاح عن ما بين المثل والتمثيل من فروق.

وفيما يلى أهم الفروق:

* المثل قول موجز مشهور له مورد ومضرب يردد فيه، والتمثيل لايشترط فيه الايجاز ولا الشهرة، وليس له مضرب يذكر فيه وإن كان له مورد.

* التشبيه فى المثل يصدق على حالات كثيرة مشابهة يحسن ترديده فيها: أما التمثيل فالتشبيه فيه مقصور على الحالة التى ورد فيه، أو الشأن فيه أن يكون كذلك.

* المثل عند ترديده يصبح استعارة تمثيلية أو مجازاً مركبا دائماً يستعار فيه المورد للمضرب.

أما التمثيل فليس يلازم فيه أن يكون مجازا، بل يجوز فيه ذلك - كما سيأتى - والكثير من صوره لاتخرج عن التشبيه الحقيقى (تشبيه تمثيلى) استعملت فيه الألفاظ فى حقائقها اللغوية.

---

(١) البحر المحيط (٥ - ٥٣٠).

* أداة التشبيه فى المثل لاوجه لها إلا إذا كانت الأداة هى أصل المثل[١].

أما فى التمثيل فأداة التشبيه أصل فيه، فإذا لم تذكر لفظاً قدرت، وتجرى - عليه أحكام التشبيه المحذوف الأداة حينئذ، من افادة التوكيد والمبالغة إذا قرن بحذف الوجه، وهو فى التمثيل كثير غالب.

* كثيراً ما يقترن «التمثيل» فى البيان القرآنى بكلمة: الضرب «على وجه الخبر» ضرب[٢].

أو الأمر والإنشاء «أضرب»[٣] وقد يأتى الخبر فى صورة المضارع كذلك يضرب[٤].

ويأتى الإنشاء فى صورة النهى «فلا تضربوا»[٥] ومعنى الضرب هنا «الذكر».

أما فى المثل فلا يصرح بالضرب، بل هو أمر مضمر فى النفس ومعنى الضرب فى المثل هو «الاستعمال» أى استعمال التركيب الذى ذكر أولا فى مورده مستعارا لمضربه.

فقوله تعالى: «واضرب لهم مثل الحياة الدنيا...» معناه أذكر لهم مثلها، وهو بقية الآية الكريمة «كماء أنزلناه من السماء.» هذا فى التمثيل.

أما المثل فإن من يقول لآخر: أن ترد الماء بماء أكيس» يحثه على حفظ ما فى يده فلا يبدده حتى يجد غيره فإنه قد ضرب له مثلا باستعماله هذا التركيب. وبدهى أنه لم يقرنه به لفظا، وإنما الاستعمال نفسه هو الضرب، وهذا من أخفى الفروق بين المثال والتمثيل.

---

(١) كثير من الأمثال مصدرة بأداة التشبيه عند موردها، مثل «كمبتغى الصيد فى عرينة الأسد» ويضرب لمن أورده الطمع المهالك، وهو نصف بيت للطرماح (المستقصى جـ ٢ ص ٢٣٢) فهذا وأمثاله عند ترديده يحكى على حالته لأن التركيب كله مشبه به.

(٢) كقوله تعالى: «وضرب الله مثلا رجلين» النحل (٧٦).

(٣) كقوله تعالى: «واضرب لهم مثل الحياة الدنيا» الكهف (٣٢).

(٤) آية (٣) من سورة القتال.

(٥) آية (٧٤) من سورة النحل.

معنى «الضرب» للأمثال

حقيقة الضرب فى اللغة هى إمساس جسم بجسم بعنف[١] هذا هو الأصل فيه، ويخرج إلى معان كثيرة منها:

الجعل والاعتمال ـ السير فى الأرض ـ والوضع والصنع، النصب والمنع والإلزام. يقال: ضرب فى الأرض إذا سار فيها. وضربت له مثلا وضعته له وصنعته وجعلته واعتملته، وضربت الخيمة نصبتها وأقمتها، وضربت عليه كذا إذا ألزمته به، وضربت على يديه أى منعته وأفسدت قصده[٢].

ويتعدى بنفسه مثل: ضربت مثلا، وبالحرف مثل: ضربت عليه، وضربت له ـ وضربت فى الأرض.

فما معنى ضرب الأمثال والضرب للتمثيل إذن؟

كل تلك المعانى صالحة لأن يفسر بها الضرب فى التمثيل والأمثال، بيد أن أبا هلال اختار أن يكون بمعنى السير فقال:ـ

«وضرب المثل جعله يسير فى البلاد، من قولك ضرب فى الأرض إذا سار فيها[٣]».

والزمخشرى يفهم من كلامه أن معنى ضرب الأمثال هو اشتهارها فقد قال فى ـ مقدمة كتابه:

«ولأمر ما سبقت أراعيل الرياح، وتركتها كالراسفة فى القيود بتدارك سيرها فى البلاد، مصعدة ومصوبة، واختراقها الآفاق مشرقة ومغربه[٤]».

«وكذلك ذهب الشريف الرضى فشرح ضرب الأمثال بنصبها وذيوعها ومعان أخرى قريبة منها[٥]».

---

(١) البحر المحيط (جـ ١ ص ١١٩) والجسم الأول هو المضروب والثانى المضروب به.
(٢) انظر تاج العروس وصحاح الجوهرى والمصباح المنير مادة (ضرب).
(٣) جمهرة الأمثال (جـ ١ ص ٧).
(٤) المستقصى (جـ ١ ص ٢٠).
(٥) تلخيص البيان (١٠٧).

ومعلوم إن الأصل فى ضرب المثل « ذكره » وعدل عن الأصل إلى « الضرب » .

وقد مضى تفسيرهم لمعناه، ويتلخص من نقولنا عنهم أن ضرب المثل مستعار لذكره ولايستعار شيء لشيء إلا العلاقة تجمع بينهما، هى المسماة بـ« الجامع » فى الاستعارة وبـ« الوجه » فى التشبيه. ولم أر من نص على « الجامع » هنا صراحة، ولكن يحضرنى فيه بيان لأستاذنا الشيخ عبد الغنى عوض الراجحى كان قد أبداه أيام الطلب، يقول: « إن المراد من ضرب المثل ذكره مؤثراً فى النفوس تأثيراً قويا اقناعاً وإمتاعاً كما يؤثر الضرب فى المضروب » .

وأرانى ميالا لهذا التوجيه، لإنه يجعل « الجامع » بين المستعار له (الذكر) وبين المستعار منه (الضرب) قوة الإحساس والتأثير فى كل منهما.

والمثل إذا أحسن إيراده فى الكلام كان له وقع عظيم فى النفوس واحساس قوى لايكون لعادى الكلام، لإنه كما سيق يجمع بين الإيجاز وحسن التشبيه، والإصابة والصدق، وجودة الكناية، فهو نهاية البلاغة.

التحليل البلاغى للتمثيل والأمثال

المثل المضروب المشبه به مضربه بمورده لاينفك بحال عن كونه مجازاً مركبا أو استعارة تمثيلية شبهت فيها هيئة تركيبية بهيئة تركيبية أخرى (المضرب بالمورد) فلكل مثل حالة أولى ورد فيها، وحالات أخرى يردد فيها فمورد المثل واحد: أما المضرب فمتعدد. ومورد المثل شبيه بوضع المفرد فى أن كلا منهما حقيقتان لغويتان(١).

وترديد المثل فى مضاربه شبيه بالمجاز فى المفرد، فى أن كلا منهما قد نقل من الأصل اللغوى له إلى الاستعمال المجازى الطارىء عليه والمسوغ للنقل هو علاقة « المشابهة » بين المنقول والمنقول إليه أو هو « الجامع » كما مر.

قال الخطيب القزوينى:

---

(١) شراح التلخيص يدعون « التراكيب عموما » بالوضع النوعي. وهو عندهم قسيم الوضع الافرادى (جـ ٤ ص ١٤٦).

« وأما المجاز المركب فهو اللفظ المركب المستعمل فى ما شبه بمعناه الأصلى ومجيؤه على حد الاستعارة كان بسبب حذف المشبه من الكلام واطراح أداة التشبيه، لإن الأصل فيه أن يقال: أراك فى ترددك كمن يقدم رجلا، ويؤخر أخرى[1].

والمعنى: تقدم رجلا تارة وتؤخرها أخرى. فالرجل المتصرف فيها واحدة لا رجلان، وبعض الناس يحسب المعنى: تقدم رجلا وتؤخر رجلا أخرى. والتركيب من حيث الظاهر يحتمل هذا التخريج لحذف مفعول «تؤخر» فصلح لتقدير مفعول مغاير لمفعول «تقدم» وهذا غير صحيح، لإن هيئة المتردد أن يقدم الرجل مرة ثم يعود فيؤخرها هى مرة أخرى.

أما تأخير رجل أخرى غير المقدمة فلا وجود له فى حالة المتردد قطعاً وكذلك فإن الطباع لم تجر به.

ولا حجة لمن يستدل على اختلاف الرجل المقدمة عن الرجل المؤخرة بقوله: «فاعتمد على أيهما شئت» فثنى المضاف إليه «أى». وهو «هما» وجعل الضمير عائداً على «الرجلين».

لا حجة فى هذا لإن الضمير عائد على التقديم والتأخير؛ لا على رجلين.

وظاهر كلام الامامين (عبد القاهر والخطيب) أنهما متفقان على أن فى العبارة مجازاً مركبا (استعارة تمثيلية) وأن المعنى المراد منها هو التردد. والذى حملهما على هذا هو علاقة المشابهة بين الحالتين وما أجمع عليه الشيخان تشبيه التمثيل، للمبالغة فى التشبيه، أى تشبيه إحدى صورتين منتزعتين من أمرين أو أمور بالأخرى. ثم تدخل المشبهة فى جنس المشبه بها، مبالغة فى التشبيه، فتذكر بلفظها من غير تغيير بوجه من الوجوه[2]».

ثم مثل الخطب لهذا بقول الوليد بن يزيد إلى مروان بن محمد حين تباطأ فى عقد البيعة له:

---

(١) انظر الدلائل (٥٤).

(٢) الايضاح (٤٣٨) شرح وتعليق د. محمد عبد المنعم خفاجى.

«فإنى أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى، فإذا آتاك كتابى هذا فاعتمد على أيهما شئت[1]».

وفسره فقال «شبه صورة تردده فى المبايعة بصورة تردد من قام ليذهب فى امر، فتارة يريد الذهاب فيقدم رجلا، وتارة لايريد فيؤخر أخرى[2]».

فالصورة المشبهة صورة نفسية معنوية، هى التردد فى عقد البيعة بين الإقدام عليها والاحجام عنها، والصورة المشبهة بها صورة يغلب عليها الحس، وهى تقديم الرجل تارة وتأخيرها تارة أخرى.

وقد ردد الإمام عبد القاهر من قبل هذه العبارة، مصدراً لها بقوله:

«وأما التمثيل الذى يكون مجازاً لمجيئك به على حد الاستعارة فمثاله قولك للرجل يتردد فى الشىء بين فعله وتركه: أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى[3]».

ليس يلازم فى تحليل التركيب بلاغيا، بل يجوز فيه حمل الكلام على الكناية عن الصفة، بل إن القول بأنه من باب الكناية أظهر مما أجمعا عليه. لأن الاستعارة مجاز، والمجاز بأتفاقهم لابد فيه من قرينة تمنع من إرادة المعنى الأصلى، ولا قرينة، هّنا، لأن المعنى المراد، وهو التردد، لايمتنع فيه إرادة المعنى الأصلى، وهو تقديم الرجل ثم تأخيرها حقيقة.

وربما كان الحامل للشيخين أن قائل تلك العبارة لم ير من بعث بها إليه يقدم رجلا ويؤخر أخرى، وإنما علم بتردده عن البيعة، فالرؤية علمية لا بصرية بدليل أنه أرسل إليه كتابا، ولم يكلمه مشافهة، وإذا صح هذا التوجيه ـ وأراه صحيحا، فإنه مفيد فى حالة المورد فى حمل الكلام على المجاز ويكون عدم الرؤية البصرية هى القرينة المانعة، من إرادة المعنى الأصلى.

وهذا التوجيه أولى مما ذهب إلى شراح التلخيص من أنه مجاز متفرع عن الكناية[4]؟!

---

(١) نفس الموضع.
(٢) نفس الموضع.
(٣) دلائل الاعجاز (٥٤).
(٤) انظر الشروح (جـ ٤ ص ١٤٦) وما بعدها.

أما فى حالات المضرب فإن المعول عليه ضعيف، فحالات المضرب غير مضبوطة فإذا قال أحد لآخر، وقد رآه متردداً بين الاقدام والاحجام. أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى» فكيف يحمل هذا الكلام على المجاز قولا واحداً ولا قرينة تمنع من إرادة المعنى الأصلى؟!

إن قولهم: فلان طويل النجاد؛ «وبعيدة مهوى القرط» كنايتان عن الطول بلا خلاف، سواء كان للموصوف نجاد وقرط، أو لم يكن، على اعتبار أنه لو كان له نجاد لكان طويلا ولو كان «لها» قرط لكان مهواه بعيداً فالكناية لايلزم فيها وجود المعنى الأصلى، وكذلك لايمتنع إن وجد.

وأيا كان القول المذكور: أراك تقدم «مجازاً تمثيليا أو كناية فإن للبلاغة فيه لحمته وسداه، هذا من حيث صياغة العبارة ومن حيث بناؤها..

أما من حيث ضرب المثل بها فهى استعارة تمثيلية بلا نزاع شبه فيها المضرب بالمورد، لأن المستعار هو التركيب نفسه المنزل منزلة المفرد فى المجاز الإفرادى، وكون المثل عند ترديده استعارة تمثيلية غير منظور فيه إلى هيئته فى حالة المورد، أيا كان فيها حقيقة أو مجازا.

فترديدنا لقول الشاعر:

. . . . . **كالمستجير من الرمضاء بالنار**

يصبح عند ضرب المثل به مجازا تركيبيا مع أنه فى الأصل حقيقة، لغوية لإنه تشبيه حقيقى صريح.

ومثله قول الآخر:

. . . . . **كمبتغى الصيد فى عرينة الأسد؟**

وقولهم: إن الحديد بالحديد يفلح[1] «كلام جرى مجرى الحقائق اللغوية لكنه عند التمثيل به يصبح مجازاً مركبا.

وقولهم: من نجل الناس نجلوه[2] هو فى أصله مجاز معناه من تكلم فى

---

(١) الأمثال لابن سلام.

(٢) نفس المصدر السابق.

الناس بالسوء تكلموا فيه بمثله، والتجل من معانيه الحز والقطع بالمنجل وهو آلة الحصاد، وحين يضرب به المثل يصير استعارة تمثيلية قطعا وهو من صور مجاز المجاز.

وصفوة القول: إن المثل حين يشبه مضربه بمورده فهو - دائما - مجاز استعارى مركب (استعارة تمثيلية) ما دامت العلاقة فى النقل هى «المشابهة» شريطة، أن لايتصرف فيه، بل يترك على هيئته الوارد عليها بلا أدنى تغيير فإن حصل فيه تصرف فلا يكون مجازا، لإن شرط الاستعارة أن يحافظ فيها على «المستعار» كما يعار الثوب وغيره من المنقولات التى يحصل الإذن بالتمتع بمنافعها دون التصرف فى ذواتها وأعيانها والتغيير فى المثل يخل بشرط المجاز فيه، فيصبح الكلام بعد التغيير شيئاً آخر غير صورة المثل.

ويستوى فى كونه عند الضرب مجازا: الحقيقة والتشبيه والكناية والمجاز، إن كان الأصل واردا على شىء منها، وهذا أمر لا أرى فيه خلافا.

* * *

هل التمثيلية تبعية؟

قسم البلاغيون الاستعارة قسمين كبيرين:

أحدهما الاستعارة التصريحية وضابطها أن يصرح بذكر المشبه به فيها، ويطوى ذكر المشبه من البين.

والآخر: أن يحذف المشبه به ويبقى المشبه على أن يرمز للمشبه به يذكر لازم من لوازمه يكون دليلا على المحذوف، ويطلقون على الاستعارة فى هذه الصورة الاستعارة المكنية.

ثم يعودون ويقسمون الاستعارة التصريحية قسمين آخرين أو نوعين:

إحداهما: الاستعارة الأصلية وضابطها أن يكون المستعار فيها اسم جنس أو جامدا لم يؤخذ من غيره كالمصادر، مثل استعارة النور للعلم، والحياة للإيمان والأسد للرجل الشجاع، والعدل للعادل، والنطق للإبانة، والضحك لتفتح النَّوْر وهكذا وسميت أصلية لإن المجاز جرى فيها فى نفس الكلمة، بلا وساطة.

وثانيتهما: تبعية وضابطها أن يكون المستعار فيها فعلا أو صفة، مشتقة، أو حرفاً من حروف المعانى. وسميت تبعية لإن المجاز جرى فى المصادر أولا ثم سرى إلى فروعها.

وهذا كله جار فى الاستعارة المفردة دون المركبة (التمثيلية) التى مرَّ القول فيها. وسكوتهم عن تفصيل القول فى نسبتها هو الذى أملى علينا هذا السؤال هل التمثيلية تبعية؟

ولا خلاف فى أنها استعارة تصريحية لانطباق ضابطها عليها، فهى قد صرح فيها بالمشبه به وطوى ذكر المشبه. وبذلك صارت تصريحية قولا واحداً.

ولكن إلى أى نوعى التصريحية تنتمى؟ لم أجد فى كتاباتهم ما يحسم الأمر فيها اللهم إلا ما ذكره بعض شراح التلخيص تعقيباً على قول الزمخشرى فى شرح قوله تعالى:

﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٥] فقد قال فيه: «ومعنى

الاستعلاء فى قوله تعالى «أولئك على هدى» أنه مثل لتمكنهم من الهدى واستقرارهم وتمسكهم به، فشبهت حالهم بحال من اعتلى الشيء وركبه[1]» وكلام الزمخشري هنا لانزاع فيه لجريه على الأصول المقررة بلاغة، ولكن بعض الشراح قال معلقاً عليه: يعنى أن هذه استعارة تمثيلية تبعية» أما التبعية فلجريانها أولا فى متعلق معنى الحرف وتبعيتها فى الحرف، وأما التمثيلية فلكون كل من طرفى التشبيه حالة منتزعة من عدة أمور[2]».

وقد دفع السيد هذا التوجيه، واستدل على دفعه بأن طرفى التشبيه فى هذه الاستعارة مركبان فلا يكون معنى الحرف مشبهان أصالة حتى يمكن سراية التشبيه منه، لأن التشبيه إنما وقع بين المركبين لا بين المفردين[3].

هذا كلام السيد، وهو دفع وجيه كما ترى. ونضيف إلى ما قاله السيد.

(أ) الاستعارة التمثيلية تتكون من عدة ألفاظ كما تقدم، بخلاف الأصلية والتبعية فكلتاهما تجريان فى المفردات. فمن اليسير فيهما تحديد حقيقة المستعار من كونه جامداً أو مشتقاً، وسيتبع ذلك تحديد الاستعارة نفسها أأصلية هى أم تبعية؟

أما التمثيلية فقد تتكون من جوامد ومشتقات معاً، كما فى قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ﴾ [الأعراف: ١٥٤] صالح لإجراء التمثيلية فيه، والتركيب جمع بين الحروف والفعل، والعلم «موسى» والإسم الجامد (الغضب) فأيهما تراعى جهته؟ ما يقتضى تبعيتها من الحرف والفعل، أو ما يقتضى أصالتها من ﴿مُّوسَى الْغَضَبُ﴾ هذه واحدة.

(ب) والثانية إن الاستعارة التمثيلية لاتجوز فى مفرداتها، فهى مستعملة فى حقائقها اللغوية، والتجوز واقع فى مجموع التركيب وكون الإستعارة أصلية أو تبعية منظور فيه إلى حقيقة اللفظ المنقول، ولا نقل هنا، فيمتنع كون الإستعارة التمثيلية أصلية أو تبعية مع التسليم بأنها تصريحية لكون المصرح بذكره فيها الصورة المشبهة بها، ويترتب على هذا أن الاستعارة التصريحية ثلاثة أنواع لا نوعان، والأنواع الثلاثة هى:

---

(١) الكشاف (١/ ١٤٢-١٤٣).

(٢) شروح التلخيص.

(٣) حاشية السيد على الكشاف نفس الموضع.

١ ـ الاستعارة التصريحية الأصلية.

٢ ـ الاستعارة التصريحية التبعية.

٣ ـ الاستعارة التصريحية التمثيلية.

التمثيل وصوره

يطلق التمثيل على أربعة معان أو صور:

١ ـ التشبيه التمثيلى وهو حقيقة لغوية لم يصرح فيه بذكر المثل.

٢ ـ التشبيه التمثيلى المصرح فيه بذكر المثل على نحو ما هو من البيان القرآنى والبيان النبوى، وهو كسابقة حقيقة لغوية بيد أنه مثل خاص مضروب لحالة خاصة لا يتعداها لغيرها فمورده ومضربه واحد، كالأمثال المضروبة للمنافقين وللحياة الدنيا فى القرآن الحكيم، والأمثال المضروبة للعلم والهدى وللأنبياء وللجليس الصالح وجليس السوء فى البيان النبوى.

٣ ـ المثل الذى له مورد ومضرب المشبه مضربه بمورده الذى له حظ من الشهرة.

٤ ـ الاستعارة التمثيلية وهى نوعان:

(أ) تمثيل استعارى ليس مثلا كقوله تعالى: ﴿ **وَأَعْطَىٰ قَلِيلاً وَأَكْدَىٰ** ﴾ وقوله تعالى ﴿ **هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ** ﴾.

(ب) تمثيل على حد الاستعارة شبيه بالمثل وليس بمثل لعدم الشهرة مثل: يخط على الماء، ويرقم فى الهواء، ويطرق فى حديد بارد. كلها بمعنى واحد إذا كان يعمل بلا جدوى.

والله أعلم.